الجامعة الأميركيّة في بيروت

الظواهر الدّالّة على الحكمة في "الخصائص"
دراسة في مصطلحات ابن جنّيّ ومفاهيمه وأسلوبه في التحليل اللغويّ

إعداد
رشا أحمد دبّاغ

رسالة
مقدَّمة لاستكمال متطلّبات نيل شهادة أستاذ في الآداب
(الماجستير)
إلى دائرة اللغة العربيّة ولغات الشرق الأدنى
في كليّة الآداب والعلوم
في الجامعة الأميركيّة في بيروت

بيروت، لبنان
آب ٢٠١٨

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

PHENOMENA INDICATIVE OF *ḤIKMA* IN *al-KHAṢĀ'IṢ*: A STUDY OF IBN JINNĪ's TECHNICAL TERMS, CONCEPTS AND METHODS OF LINGUISTIC ANALYSIS

by

RACHA AHMAD DABBAGH

A thesis
submitted in partial fulfillment of the requirements
for the degree of Master of Arts
to the Department of Arabic and Near Eastern Languages
of the Faculty of Arts and Sciences
of the American University of Beirut

Beirut, Lebanon
August 2018

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

PHENOMENA INDICATIVE of *ḤIKMA* IN *al-KHAṢĀ'IṢ*: A STUDY OF IBN JINNĪ's TECHNICAL TERMS, CONCEPTS AND METHODS OF LINGUISTIC ANALYSIS

by

RACHA AHMAD DABBAGH

Approved by:

Dr. Ramzi Baalbaki, Professor
Department of Arabic and Near Eastern Languages
Margaret Weyerhaeuser Jewett Chair of Arabic

Advisor

Dr. Mahmoud Al Batal, Professor
Department of Arabic and Near Eastern Languages

Member of Committee

Dr. Ridwan AL-Sayyid, Visiting Professor
Department of Arabic and Near Eastern Languages

Member of Committee

Date of thesis defense: August 29, 2018

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

THESIS, DISSERTATION, PROJECT RELEASE FORM

Student Name: Dabbagh (Last) Racha (First) Ahmad (Middle)

● Master's Thesis ○ Master's Project ○ Doctoral Dissertation

■ I authorize the American University of Beirut to: (a) reproduce hard or electronic copies of my thesis, dissertation, or project; (b) include such copies in the archives and digital repositories of the University; and (c) make freely available such copies to third parties for research or educational purposes.

☐ I authorize the American University of Beirut, to: (a) reproduce hard or electronic copies of it; (b) include such copies in the archives and digital repositories of the University; and (c) make freely available such copies to third parties for research or educational purposes after :

One ---- year from the date of submission of my thesis, dissertation, or project.
Two ---- years from the date of submission of my thesis, dissertation, or project.
Three ---- years from the date of submission of my thesis, dissertation, or project.

Racha 10-09-2018

Signature Date

شُكر

أحمدُ الله العليّ القدير أن وفّقني لإتمام هذا البحث. أودُّ أن أتقدّم بجزيل الشُّكر إلى الدكتور رمزي بعلبكي الذي تفضَّل مشكورًا بقبول الإشراف على رسالتي؛ كما أتقدّم بالشُّكر إلى عضوَي لجنة المناقشة اللذين تكرّم بقراءة البحث: الدكتور رضوان السيّد، والدكتور محمود البطل.

والشكرُ موصول إلى الجامعة الأميركيّة في بيروت التي زوّدتني بمنحة دراسيّة مكّنتني من متابعة تحصيلي العلميّ العالي؛ وإلى مكتبة نعمة يافث التي أفدتُ فائدة كبرى من ذخائرها ومحفوظاتها.

كما أتقدّم بالشكر الجزيل إلى دائرة اللغة العربيّة ولغات الشرق الأدنى وأساتذتها على رأسهم الدكتور بلال الأرفه لي، رئيس الدائرة، الذي لا نزال نشهد على إنجازاته وجهوده في رفع المستوى العلميّ والأكاديميّ.

وأتقدّم بجزيل الشُّكر إلى عايدة عبّاس المساعدة الإدراية على مساعداتها ودعمها، كما أشكر أصدقائي وزملائي في الدائرة على دعمهم ومساندتهم المتواصلة.

مستخلص لرسالة

رشا أحمد دبّاغ لماجستير في الآداب

الاختصاص: اللغة العربيّة وآدابها

العنوان: الظواهر الدّالّة على الحكمة في "الخصائص": دراسة في مصطلحات ابن جنّيّ ومفاهيمه وأسلوبه في التحليل اللغويّ

تعالج هذه الرسالةُ الظواهرَ الدّالّة على الحكمة في كتاب "الخصائص" لابن جنّي (تـ ٣٩٢ هـ) من خلال دراسة مصطلحاته ومفاهيمه وأسلوبه في التحليل اللغويّ ومقاربة أصول النحو العربيّ. والمقصود بـ"الحكمة" الغرض من اختيار المتكلّم العربيّ لفظًا دون غيره من الألفاظ في وضع أو سياق معيّن. وإذا توسّعنا في البحث عن مفهوم الحكمة عند اللغويّين، وجدناه كامنًا في أقدم نصّ معجميّ وصلنا عن الخليل (تـ ١٧٥هـ) وأقدم نصّ نحويّ وصلنا عن سيبويه (تـ١٨٠ هـ). وقد سعى المصنِّف في كلّ فصلٍ من فصول كتابه أن يُبين عن وجوه الحكمة في الظواهر اللغويّة سواءٌ في ذلك في السماعُ والقياس والأصوات واللغة والألفاظ والمعاني.

ولا ريب أن المصنِّف كان يستند في كثير من آرائه اللغويّة والنحويّة على مفهوم الحكمة، سواءٌ أكان يعبّر عن ذلك المفهوم بمصطلح محدّد أم يصرّح به على نحوٍ غير مباشر. وغرضنا الأساسيّ في هذه الدراسة إنّما هو تعقّب مصطلح الحكمة واستنباط مكامنها في الكتاب. وانطلاقًا من هذا الواقع سنحاول الفصل بين ما يمكن أن يعدّ مصطلحًا دالًّا على الحكمة، بمعنى آخر المصطلحات التي جاءت بمعنى الحكمة، وبين المفاهيم التي تعبّر عن الحكمة أو تقترن بها، ثمّ استخراج مكامن الحكمة فيها. كما سنعمد إلى ضبطها بتقسيم الدراسة إلى ثلاثة أقسام: القسم الأوّل يتناول تعريف الحكمة، يليه عرض يختصر مفهوم الحكمة في التراث النحويّ واللغويّ من القرن الثاني، عصر الخليل، حتى القرن الرابع، عصر ابن جنّيّ. أمّا في الباب الثاني سنتطرّق إلى دراسةِ منهج الخصائص، تمهيدًا لِلباب

الثالث الذي يعرض الحكمة في الكتاب انطلاقًا من المصطلحات التي جاءت بمعنى الحكمة، والظواهر اللغويّة المتعلّقة بالأصوات والألفاظ والأدوات النحويّة.

AN ABSTRACT OF THE THESIS OF

Racha Ahmad Dabbagh for Master of Arts

Major: Arabic Language and literature

Title: Phenomena Indicative of ḥikma in al-khaṣāʾiṣ: A study of Ibn Jinnī's technical terms, Concepts and Methods of linguistics Analysis

The concept of *ḥikma* (wisdom) is prevalent in the Arabic Grammar Tradition. In fact, the first text related to this concept is attributed to al-Khalīl bin Aḥmad (d. 175/791) and refers to a similie of a house that has several features, each of which indicate the wisdom behind its architecture. Similarly, the grammarians were interested in demonstrating the elements that prove the wisdom of the *wāḍiʿ*, i.e., the supposed originator of the language.

Nowhere in the tradition is the concept of *ḥikma* more apparent than in *Kitāb al-Khaṣā'is* by Ibn Jinnī (d. 392/1002), who strives in almost every chapter to demonstrate how the intricate features of Arabic and its idiosyncrasies reflect the wisdom behind its usage. This is apparent on his vivid discussion of the phonological, morphological, syntactic and semantic issues.

This study is divided into three chapters, all of which pertain to *ḥikma* in the linguistic tradition. The first chapter traces the elements of *ḥikma* from the second/eighth century until the fourth/tenth century in the works of both grammarians and lexicographers. The second chapter deals with Ibn Jinnī's approach to matters related to *ḥikma* in the various aspects of grammar in its broadest sense. Finally, chapter three

focuses on selected texts from *al-Khaṣā'is*, and interprets them in a manner that reveals the underlying *ḥikma* which Ibn Jinnī tries to highlight.

المحتويات

الصفحة

شُكر ..... هـ

مستخلص بالعربيّة ..... و

مستخلص بالإنكليزيّة ..... ح

الفصل

الأوّل: المقدّمة ١

الثاني: الحكمة في التراث اللغويّ والنحويّ: تطوّر مفهوم الحكمة عند اللغويّين والنحويّين العرب . ١١

ألف: حدّ الحكمة ١٢

باء. مفهوم الحكمة في التراث العربيّ: استعمالاتها في الفنون المختلفة ١٣

جيم. مفهوم الحكمة في التراث النحويّ واللغويّ ١٥

١. مرحلة ما قبل الكتاب ١٩

١-١. مرحلة أبي الأسود الدؤليّ ٢٠

١-٢. الجيل الأوّل من التلاميذ: مرحلة النظر والاستقراء ٢٢

١-٣. الجيل الثاني من التلاميذ: مرحلة بداية التأليف النحويّ ٢٤

٢. مرحلة الكتاب ٢٩

٣. مرحلة ما بعد الكتاب ٣٢

الثالث: دراسة في منهج الخصائص ٣٤

ألف: كتاب الخصائص ٣٧

باء. منهج ابن جنّيّ ٤١

الرابع: الحكمة في كتاب الخصائص ٥٢

ألف: مقاربة ابن جنّيّ للحكمة ٥٥

١. حكمة الواضع ٥٥

١-١. معنى "الوضع" في المعجم ٥٦

١-٢. سياق "الوضع" في النص ٥٧

٢. الاهتمام بالمعنى وتقديمه على اللفظ ٦٠

٣. تفضيل العربيّة على سائر اللغات ٦٤

٤. النزعة العربيّة والتصدّي للشعوبيّة ٦٧

٤-١. موقف ابن جنّيّ من العرب ٦٧

٤-٢. التصدّي للشعوبيّة ٧٣

باء. معاني الحكمة في الخصائص ٧٦

١. المنبهة ٧٦

٢. شجاعة العربيّة ٧٨

٣. الشريف/الشريف/ الشرف ٨٠

٤. حُسن الصنعة ٨٢

جيم. تجلّيات الحكمة في الأصوات والألفاظ وأدوات التحليل النحويّ ٨٥

١. الأصوات والألفاظ ٨٦

٢. أدوات التحليل النحويّ ٩٠

٢-١. العلّة النحويّة ٩١

٢-٢. القياس ٩٦

الخامس: الخاتمة ٩٩

بيبليوغرافيا ١٠٢

إهداء

إلى الدكتور رمزي بعلبكي

أستاذي ومعلّمي، إلى مَن أرشدني ووعَظَني، إلى مَن زرع فيَّ حبَّ المعرفة وصَقل مَلَكتي البحثيّة، إلى مَن كان نِعْمَ المُعين والموجّه، وإليه يرجع الفَضل في اختيار الموضوع، أدامَك الله ذخرًا وأمدَّ في عمرك

إلى أحمد دبّاغ ومنى فايد

والدي ووالدتي، اللذين سهرا على تعليمي ورعايتي، وزرعا فيَّ الأمل لأمضيَ قُدمًا في درب المعرفة والعلم، ورافقتني دعواتهما على طول الدرب

جزاهما الله عنّي خير الجزاء وأطال في عمريْهما

إلى سارة ومحمّد وعمر

إخواني الذين أتشاطر معهم حُلْوَ الأيّام ومرَّها

إلى تالا دمشقيّة

ابنة أختي وقرّة عيني

إلى ريما دبّاغ

عمّتي الغالية التي وقفت إلى جانبي وأبدت مساندتها تاركةً أثرًا كبيرًا في نفسي

إلى أحمد حلمي

الصديق والأخ الغالي، الذي شاركني عناء هذه الرسالة ولم يدّخر جهدًا في نُصحي وإرشادي، فكان نِعْم السَّند والمُعين

إلى إيمان أبو حرب، وخليل صوّان، وهاني رمضان وفاطمة شحوري

زملائي في الدائرة الذين ساندوني ولم يبخلوا عليَّ بالمشورة عند الاقتضاء

إلى مَن عِشت معهم أيّام الدراسة والكتابة وتقاسَمنا أجمل الذكريات، لهم منّي كلّ الشكر والتقدير لِما أبدوه من دعمٍ معنويّ على تخطّي كلّ الصعوبات التي واجهتها في تلك الفترة

إلى الدكتورة شفيقة وعيل

خرّيجة الدائرة التي لم تألُ جهدًا في نُصحي وإرشادي

إلى علاء الدين كيالي، ومحمّد ضياء الدين الأسود، ورالف إبراهيم، وزلفى حبّ الله

زملائي في دائرة اللغة العربيّة

إلى كلِّ مَن أحبَّ العربيّة ورأى فيها وجه الحكمة

أُهدي هذه الرسالة

الفصل الأوّل

المقدّمة

تعالج هذه الرسالةُ الظواهرَ الدّالّة على الحكمة في كتاب "الخصائص" لابن جنّيّ (ت ٣٩٢هـ) من خلال دراسة مصطلحاته ومفاهيمه وأسلوبه في التحليل اللغويّ ومقاربة أصول النحو العربيّ. والمقصود بـ"الحكمة" الغرض من اختيار المتكلّم العربيّ صوتًا ما أو مفردةً ما أو ظاهرةً صرفيّةَ أو نحويّة ما في سياق معيّن. والعربُ قومٌ —كما وصفهم ابن جنّيّ— "قَبِلوا العربيّة في طبائعهم وفكرهم الناصع والصافي، ولم يُؤتوا هذه اللغة الشريفة الكريمة إلاّ ونفوسهم قابلة لها مُحسّة لقوّة الصنعة فيها، مُعترفة بقدر النعمة عليهم بما وهبهم الله إيّاه".[١]

وإنّ نظرةً عجلى على تاريخ نشأة النحو العربيّ تُبيّن لنا أنّ "الحكمة" —وإنْ غاب المصطلح نفسه عن الاستعمال— إنما هي مفهومٌ قديم ظهر مع بدايات التأليف النحويّ، وتطوّر بتطوّره. فالعلّة النحويّة والقياس والتعليل والعامل وغيرها من المفاهيم النحويّة هيّأت الخلفيّة المناسبة لنشأة هذا المفهوم وتطوّره.

وإذا توسّعنا في البحث عن مفهوم الحكمة عند اللغويّين، وجدناه كامنًا في أقدم نصّ معجميّ وصلنا للخليل (١٧٥ هـ) وأقدم نصّ نحويّ وصلنا لسيبويه (ت١٨٠ هـ).

فقد نظر الخليل إلى اللغة على أنها بناء متناسق التركيب، ودار مُحكمة البناء؛ وفي هذا التشبيه إشارة إلى مفهوم الحكمة. كما لجأ الخليل إلى تعليل الظواهر اللغويّة والنحويّة للحفاظ على هذا البناء متناسقًا ومتكاملاً. يقول الزجاجيّ فيما رواه عن الخليل: "إنَّ العربَ نطقت على سجيّتها وطباعها، وعرَفتْ مواقعَ

---

[١] *الخصائص*، ابن جنّيّ، ١/٢٤٠.

كلامها، وقام في عقولِها عِلَلُه، وإن لم يُنقل ذلك عنها، واعتللتُ أنا بما عندي أنَّهُ عِلةٌ لما علّلته منه، فإن أكن أصبتُ العلّةَ فهو الذي التمستُ، وإن تكن هناك علّةٌ غيرُ ما ذكرتُ فالذي ذكرتُه محتمل أن يكون علّة، ومَثَلِي في ذلك مثل رجل حكيم دخل دارًا محكمةَ البناءِ عجيبةَ النظمِ والأقسام، وقد صحّت عنده حكمةُ بانيها بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة، فكلّما وقفَ هذا الرجل في الدار على شيء منها قال: إنّما فعل هذا هكذا لعلةِ كذا وكذا، ولسبب كذا وكذا، لِعِلَّةٍ سنحت له وخطرت بباله محتملة أن تكون علّة لتلك، فجائز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلّة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلّة، إلا أن ما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علّة لذلك، فإن سنحَتْ لغيري علّةٌ لما علَّلْتُه من النحو هي أليقُ ممّا ذكرتُه بالمعلول فليأتِ بها". قال الزّجاجيّ معلّقًا: "وهذا كلام مستقيم وإنصاف من الخليل رحمة الله عليه".[٢]

ولا شكّ في أنّ سيبويه قد تأثّر تأثُّرًا كبيرًا بأستاذه الخليل، فمشى على خُطاه في نظرته إلى اللغة على أنها بناء متناسق ودار مُحكمة البناء. كذا يُلاحظ حسين أنّ كتاب سيبويه "يتّخذ شكل البحث الميدانيّ المعتمد على الاستقراء الناقص ففيه نماذج من الاستقراء ووصف للمستقرأ وتقعيد له وتعليل للوصف والتقعيد".[٣] فقد علّل سيبويه لكلِّ ظاهرة لغويّة وقفَ عندها في الكتاب، ووضع القانون النحويّ العام من خلال التعليل، فانتظمت بذلك المسائل اللغوية في سلكٍ واحد. ويضيف الملخ قائلاً: "فيكون التعليل في كتاب سيبويه أداة للربط بين نظامين: نظام اللّغة بنصوصها المتباينة ونظام النحو بتصوّراته وأحكامه".[٤] ومع أنّنا لا نقع في

---

[٢] *الإيضاح في علل النحو*، الزجاجي، ص ٦٥-٦٦.

[٣] *نظرية التعليل في النحو العربي*، حسين الملخ، ص ٣٨.

[٤] نفسه، ص ٤٠.

"الكتاب" على مصطلحاتٍ صريحة لمفهوم الحكمة، إلا أنّنا نجد ذلك المفهوم مُضمّنًا تضمينًا في المسائل اللغويّة من خلال التعليل والقياس، وهي مسائل لا تكاد تفارق فصلًا واحدًا من فصول الكتاب، لا سيّما ما يتعلّق منها بمسائل التركيب.

إذًا مفهوم الحكمة لا يستقلّ بالضرورة بمصطلحٍ يُمكن البحث عنه في المصادر، بل إنّه مفهومٌ غالبًا ما يكون كامنًا في فروع العلوم النحويّة واللغويّة.

وأكثر ما ارتبط بمسألة الحكمة العلّة النحويّة؛ كما لاحظ محقّق الخصائص محمد النجّار في وصف علم ابن جنّيّ باللغة فيقول: "وهو في علل العربيّة وتخريجها وبيان الحكمة في تصاريفها واستخراج مناسبات الاشتقاق لا يشقّ له غبار".[٥] فقد اعتنى ابن جنّيّ بالعلّة النحويّة اعتناءً كبيرًا وخصّص لها اثني عشر بابًا في كتابه،[٦] كدأب النحاة الذين أخذوا يتنافسون في التعليل ويغوصون في استنباط العلل الكامنة والخفيّة لكلّ حكمٍ أو ظاهرةٍ نحويّة.[٧] وقد لاحظ مازن المبارك الارتباط الوثيق بين الحكمة والعلّة النحويّة التي عرّفها بـ"الوصف الذي يكون مظنّه وجه الحكمة في اتّخاذ الحكم. أو بعبارة أوضح هي الأمر الذي يزعم النحويّون أنّ العرب لاحظته حين اختارت في كلامها وجهًا معيّنًا من التعبير والصياغة".[٨]

إلا أن ابن جنّيّ لم يكتفِ بدراسة العلّة النحويّة حصرًا لإبراز وجوه الحكمة فيها، بل سعى في كلّ فصلٍ من فصول كتابه أن يشير إلى أسرار العربيّة ووجوه الحكمة فيها سواءٌ في السماع والقياس والأصوات واللغة

---

[٥] *الخصائص*، ابن جنّيّ، ١/٣٥.

[٦] الباب ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٦، ٣٤.

[٧] *النحو العربي: العلة النحويّة نشأتها وتطوّرها*، مازن المبارك، ص ٥.

[٨] نفسه، ص ٩٠.

والألفاظ والمعاني. وكذلك حاول أن يسبر غور هذه اللغة التي غالبًا ما يشير إليها بأنّها لغةٌ شريفةٌ كريمةٌ واسعة المذاهب، دقيقةُ الجوانب والبناء. ودليل ذلك قوله: "فهذا أمر قدّمناه أمام القول على الفرق بين الكلام والقول، ليُرى منه غور هذه اللّغة الشريفة الكريمة اللطيفة ويُعجب من وسيع مذاهبها...".[٩] وقد ذهب أحد الدارسين المحدثين إلى حدِّ القول بأن ابن جنّيّ "يرى في العربيّة من الأسرار ما يمكن أن يشكّل ظواهر لغويّة تكاد العربيّة تنفرد بها أو على الأقلّ هي من الظواهر التي ينبغي أن يقف عليها اللغويّ دارسًا ومتأمّلاً".[١٠] ونمثّل على هذه الظواهر بإمساس الألفاظ أشباه المعاني، وشجاعة العربيّة، والاشتقاق الأكبر، والإدغام الأصغر، وغيرها ممّا تفرّد به ابن جنّيّ وحاول من خلاله استنباط جوانب الحكمة في العربيّة.

هذا الهدف حاضر في فصول الكتاب وتفاصيله، وقد أُشير إليه في غير موضع من الخصائص. يقول ابن جنّيّ ما نصّه: "ليكون هذا الكتاب ذاهبًا في جهات النظر، إذ ليس غرضنا فيه الرفع والنصب والجرّ والجزم، لأنّ هذا أمر قد فُرغ في أكثر الكُتب المصنّفة فيه منه. وإنما هذا الكتاب مبنيٌّ على إثارة معادن المعاني، وتقرير حال الأوضاع والمبادئ، وكيف سرت أحكامها في الأحناء والحواشي".[١١] ويقول في موضع آخر: "واعلم فيما بعد أنّني على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع... وذلك أنني إذا تأملتُ حال هذه اللّغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدتُ فيها من الحكمة والدقّة والإرهاف والرقّة ما يملك عليّ جانب الفكر، حتى يكاد يطمح به أمام غَلْوة السحر".[١٢]

---

[٩] *الخصائص*، ابن جنّيّ، ١٨/١.

[١٠] *ابن جنّيّ: عالم العربيّة*، حسام النعيمي، ص ٧٨.

[١١] *الخصائص*، ابن جنّيّ، ٣٣/١.

[١٢] نفسه، ٤٧/١.

يترتّب على هذا الأمر إذًا البحث والتعقّب لإشارات الحكمة ودلالاتها، ما كان منها مباشرًا أو غير مباشرٍ. وبما أنّ موضوع الرسالة ينحصر في كتاب "الخصائص" لابن جنّيّ، كان لا بدَّ من تتبّع هذا المفهوم ودراسة إطار نشأته وتطوّره من بداية التأليف النحويّ —أي في القرن الثاني الهجريّ عصر الخليل— وصولًا إلى القرن الرابع الهجريّ عصر ابن جنّيّ. ثمّ بعد إرساء الأُطر العامّة لنشأة الحكمة، ستتعمّق هذه الرسالة في دراسة معاني الحكمة وتجليّاتها عند ابن جنّيّ.

ولا ريب أن المصنِّف كان يستند في كثير من آرائه اللغويّة والنحويّة على مفهوم الحكمة، سواءٌ أكان يعبّر عن ذلك المفهوم بمصطلح محدّد أم يصرّح به على نحوٍ غير مباشر. وغرضنا الأساسيّ في هذه الدراسة إنّما هو تعقّب مصطلح الحكمة واستنباط مكامنها في الكتاب. وانطلاقًا من هذا الواقع سنحاول الفصل بين ما يمكن أن يعدّ مصطلحًا دالاً على الحكمة، بمعنى آخر المصطلحات التي جاءت بمعنى الحكمة من مثل الشرف والمنبهة على الأصل وشجاعة العربيّة وغيرها؛ وبين المفاهيم التي تعبّر عن الحكمة أو تقترن بها، كالتعليل والقياس واللهجات ومعاني الألفاظ وإلباس الألفاظ أشباه المعاني وغيرها، واستخراج مكامن الحكمة فيها.

ولمّا كانت الحكمة بمصطلحاتها وتجلّياتها كثيرةً ومتكرّرة في ما يُقارب كلّ فصل من فصول الخصائص، سنعمد إلى ضبطها بتقسيم الدراسة إلى ثلاثة أقسام: تُستهلّ هذه الدراسة، في قسمها الأوّل، بتعريف الحكمة التي نبتغي دراستها، يليه عرض يختصر مفهوم الحكمة في التراث العربيّ واستعمالاتها في الفنون المختلفة، لنُنهي الباب الأوّل بعرضٍ لتطوّر مفهوم الحكمة من القرن الثاني، عصر الخليل، حتى القرن الرابع، عصر ابن جنّيّ، وصولاً إلى فهم السياق التاريخيّ للحكمة ومصطلحاتها. أمّا في الباب الثاني سنتطرّق إلى دراسةِ منهج الخصائص، لنختم الدراسة بالباب الثالث —الذي يدخل في صلب الموضوع—

ويعرض الحكمة في الكتاب انطلاقًا من نقاطٍ ثلاث: الأولى مقاربة ابنُ جنّيّ للحكمة من حيث نسبتها إلى "الواضع"، وتقديم المعنى على اللفظ، وموقفه من العربيّة. أمّا النقطة الثانية فتُعنى بالمصطلحات التي جاءت بمعنى الحكمة، ثمّ النقطة الثالثة تتناول الحكمة في الظواهر اللغويّة المتعلّقة بالأصوات والألفاظ والأدوات النحويّة. وقد حرصنا على نقل آراء ابن جنّيّ دون تغيير أو تعديل

ولمّا كان القصدُ من هذه الدراسة البحث عن مفهوم الحكمة في كتاب الخصائص، فقد طرحنا سؤالًا رئيسيًّا هو بمثابة المدخل إلى سائر فصول وأقسام الدراسة، وهو: كيف أبان ابن جنّيّ عن الحكمة في كتابه؟

يقوم كتاب الخصائص على منهج محدّد وهدفٍ واضحٍ التزم به ابن جنّيّ في الكتاب كلّه، وسيأتي الكلام عنه في الباب الثاني. فقد تجاوز ابن جنّيّ عرض القواعد ووضع القوانين والأحكام إلى النظر في بنية اللّغة "العميقة" من حيث الأصوات والصيغ والتراكيب وإلى البحث عن المبادئ العامّة (أي نظام اللّغة) والأصول التي تنتظم بمقتضاها القوانين اللغويّة. ودليلنا على ذلك ما ذكرناه في بداية المقدّمة عن هدف الخصائص القائم على "إثارة معادن المعاني".[١٣] استنادًا إلى ما سبق، يظهر لنا أنّ ابن جنّيّ كان يؤسّس لمنهج في البحث اللغويّ مستقلٍّ عن مناهج السابقين من حيث الهدفُ ووسائل التحليل، وإن شاركهم في المادّة اللغويّة ومجموع الشواهد التي جُمعت في القرنين الثاني والثالث الهجريّين.

وتحقيقًا للهدف المنشود، التزم ابن جنّيّ منهجًا محدّدًا في استدلاله اللغويّ، فلم يفارقه، وعماده في ذلك ركيزتان أساسيّتان هما:

١- اللّغة الفطريّة التي نطق بها العرب الأقحاح وهي اللغة المَوْصوفة.

[١٣] نفسه، ٣٣/١.

٢- والنحو، وهو جهازٌ واصفٌ للّغة الفطريّة وُضعت من خلاله المبادئ والقواعد اللغويّة (اللغة الواصفة).

انطلق ابن جنّيّ من المتكلّم العربيّ، أي —بعبارة أخرى— من المادّة التي سُمعت عن أهل الوَبَر؛ والشاهد على ذلك قوله: "ولو عُلم أنّ أهل مدينةٍ باقون على فصاحتهم، ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم، لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوَبر".[١٤]

وقد خصّص ابن جنّيّ هذا المتكلّم بصفاتٍ محدّدة، أهمّها أنّه يتكلّم العربيّة بالفطرة والسليقة من غير أن يكون على دراية بالنحو وقوانينه. وفي هذا دليل على الحكمة المنسوبة إلى العرب، كما يظهر في قوله: "وهو أحزم لها، وأجمل بها، وأدلّ على الحكمة المنسوبة إليها من أن تكون تكلّفت ما تكلّفته: من استمرارها على وتيرةٍ واحدة، وتقرّيها منهجًا واحدًا، تراعيه وتلاحظه، وتتحمَّل لذلك مشاقّه وكُلَفه، وتعتذر من تقصير إن جرى وقتاً منها في شيء منه".[١٥] فالحكمة مُستترة في كلام العرب ومنطقهم، فلا يقع منهم حذف جملة أو مفردة أو حرف أو حركة إلا عن دليلٍ.[١٦]

---

[١٤] نفسه، ٧/٢.

[١٥] نفسه، ٢٣٨/١.

[١٦] نفسه، ٣٦٢/١.

إذًا، لم يؤتَ العربُ هذه اللغة "إلا ونفوسهم قابلة لها"،[١٧] يتكلمونها بالبديهة والفطرة، دون الرجوع إلى أصولٍ موضوعة أو قوانين يعتصمون بها، فلا ينطقون إلا بما يَهجم على طبائعهم من معرفتهم اللغويّة غير الواعية.[١٨]

أما الركيزة الثانية التي اعتمدها ابن جنّيّ فهي النحو، ويُعرّفه بقوله: "انتحاء سِمت كلام العرب".[١٩] ومُفادُ هذا القول أنّ النحو مجموعة من المبادئ والقواعد اللسانيّة واللغويّة، قام النُحاة —أو كما يسمّيهم ابن جنّيّ: أهل الصنعة[٢٠]— باستنباطها ووضعها استنادًا إلى كلام العرب، أي بناءً على اللّغة الفطريّة.

والشواهد على ذلك كثيرة، أذكر منها ما أورده صاحب الخصائص عن نشأة هذا "العلم الكريم"[٢١] وإسناده إلى الإمام عليّ، المُنبّه والمرشد لأبي الأسود الدؤليّ على "الأخذ بالحظّ منه".[٢٢] ولا يكاد يخلو فصل من الخصائص من الإشارة إلى فضل هذه الصنعة، كما يكثر في الكتاب التنويه بجهود النُحاة في وضع المبادئ والقواعد. ولعلّ في الاقتباسات التالية من مواضع مختلفة من الكتاب ما فيه برهان على ذلك:

---

[١٧] نفسه، ١/٢٤٠.

[١٨] نفسه، ٣/٢٧٦.

[١٩] نفسه، ١/٣٥.

[٢٠] نفسه، ١/٣٣.

[٢١] نفسه، ٣/٣١٢.

[٢٢] نفسه، ١/٣١٢-٣١٣.

- "وكأنهم إنما سمَّوه بناء لأنه لمّا لزم ضربًا واحدًا فلم يتغيّر تغيّر الإعراب سمّي بناءً".[٢٣]
- "واعلم أنّ من قوّة القياس عندهم اعتقاد النحويّين أن ما قيس على كلام العرب فهو عندهم من كلام العرب".[٢٤]
- "واعلم أنّك إذا أدّاك القياس إلى شيء ما، ثمّ سمعت العرب قد نطقت فيه بشيء آخر على قياسٍ غيره، فدَعْ ما كنت عليه إلى ما هم عليه".[٢٥]
- "فالخلافُ إذًا بين العلماء أعمّ منه بين العرب. وذلك أن العلماء اختلفوا في الاعتلال لما اتّفقت العرب عليه، كما اختلفوا أيضًا فيما اختلفت العرب فيه، وكلّ ذهب مذهبًا وإن كان بعضه قويًا، وبعضه ضعيفًا".[٢٦]
- "هذا وقد علمنا أن الإلحاق إنما هو صناعة لفظيّة".[٢٧]
- "ومن ذلك قولهم في مطايا وعطايا: إنهما لمّا أصارتهما الصنعة إلى مطاءا...".[٢٨]

---

[٢٣] نفسه، ٣٨/١.

[٢٤] نفسه، ١١٥/١.

[٢٥] نفسه، ١٢٦/١.

[٢٦] نفسه، ١٦٩/١.

[٢٧] نفسه، ٣٤٥/٢.

[٢٨] نفسه، ٣٤٦/٢.

واللافت في هذه الاقتباسات أنها تعرض جزءًا من المنهج النحويّ الذي سار عليه النُّحاة في استنباطهم، من كلام العرب، المبادئ والقواعد اللسانيّة. كما تصوّر عملهم على صقل هذه الصنعة —أي النحو— حتى صار ما قيس على قواعدهم جزءًا من لغة العرب.

وتُشكّل هذه المبادئ المُستنبطة الجهاز النحويّ الواصف، وهو مركّبٌ من أدوات وقواعد نحويّة —لعلّ أهمها القياس[٢٩] والتعليل[٣٠]— وُضعت لتشكّل المعرفة اللغويّة الواعية. وهنا تظهر الصنعة[٣١] التي أحسن أهلُها تشكيلها وتجميلها. انطلاقًا من ذلك، يقوم ابن جنّيّ بتضمين اللغة المَوصوفة (كلام العرب الأقحاح) واللغة الواصفة (النحو وأدواته) المصطلحات والمفاهيم الدالّة على الحكمة.

غرض هذه الدراسة إذًا، رصد المصطلحات المتّصلة بالحكمة وربطها بالمفاهيم النحويّة العامّة التي لا يكاد يخلو فصل من الخصائص منها. وسيلحظ القارئ أننا قد حرصنا على نقل آراء ابن جنّيّ ومصطلحاته دون تغيير أو تعديل؛ ومن نافلة القول إن بعض آرائه —كموقفه من تفضيل العربيّة على سواها— قد لا يوافق مسلَّمات علم اللغة الحديث، إلّا أننا لن نعلّق في هذا المقام على هذه الناحية لأن دراستنا متّصلة بزمن محدَّد وغرض لن نخرج عنه.

---

[٢٩] والشاهد قول ابن جنّيّ: "واعلم أن من قوّة القياس عندهم اعتقاد النحويين أن ما قيس على كلام العرب فهو عندهم من كلام العرب". (*الخصائص*، ابن جنّيّ، ١١٥/١).

[٣٠] ودليل ذلك قول ابن جنّيّ: "ولست تجد شيئًا مما علّل به القوم وجوه الإعراب إلّا والنفس تقبله والحسّ منطوٍ على الاعتراف به".(*الخصائص*، ابن جنّيّ، ٥٢/١).

[٣١] ورد هذا المصطلح في أكثر من موضع يُشار إليها لاحقًا، انظر مثلاً: *الخصائص*، ابن جنّيّ، ٧٧/٣.

الفصل الثاني

الحكمة في التراث اللغويّ والنحويّ

تطوّر مفهوم الحكمة عند اللغويّين والنحويّين العرب

غايةُ هذه الرسالة تعقّب مفهوم الحكمة واستنباط مكامِنه في كتاب "الخصائص" من خلال معالجة الظواهر اللغويّة التي تناولها ابن جنّيّ (تـ ٣٩٢هـ) في كتابه الذي يناقش فيه بُنية اللغة وفِقْهها، ويعرض فيه لقضايا من أصول اللغة والنحو كالسماع والقياس والتعليل والحقيقة والمجاز والتقديم والتأخير والأصول والفروع... وهو الكتاب الرائد —بحسب ابن جنّيّ— الذي تطرّق لأصول النحو "وذلك أنّا لم نرَ أحدًا من علماء البلدين تعرّض لعمل أصول النحو، على مذهب أصول الكلام والفقه. فأمّا كتاب أصول أبي بكر فلم يلمم فيه، بما نحن عليه، إلا حرفًا أو حرفين في أوّله، وقد تعلق عليه به. وسنقول في معناه".[٣٢]

لكن قبل التعمّق في دراسة هذا المفهوم، وتعقّب تجلّيات الحكمة في هذا الكتاب، لا بُدّ لنا من تحديد الإطار العامّ لمفهوم الحكمة، وتعريف الحكمة التي نسعى إلى تحديدها في هذه الرسالة. وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ ابن جنّيّ لم يعرّف الحكمة ولم يحدّها بتوصيفٍ مباشر ومعيّن؛ إنّما حضرت في ذهنه وعقله فأشار إليها في الظواهر اللغويّة تارةً وصرّح بها، مستعملًا المصطلحات المتّصلة بها، تارةً أُخرى.

بناءً على ذلك سنحاول في هذه الدراسة أن نستنتج الصورة العامّة للحكمة عند ابن جنّيّ وماهيّتها من خلال تحليل المفاهيم ودراسة المصطلحات الموجودة في مؤلَّفه. وقد عُقد هذا الفصل تأسيسًا للمفهوم العامّ

[٣٢] *الخصائص*، ابن جنّيّ، المقدّمة/٢.

للحكمة. وهو يقع في ثلاثة أقسام: في القسم الأوّل تعريفُ الحكمة من حيث اللغة والاصطلاح. أمّا القسم الثاني فيعرضُ لمحةً مختصرةً عن استعمالات الحكمة في التراث العربيّ بما يشمل من فنون؛ كالفلسفة والعلوم الإسلاميّة وعلوم اللغة والأدب والشعر. بينما خُصِّص القسم الثالث لدراسة نشأة مفهوم الحكمة من بداية التأليف النحويّ. وسيكون هذا القسم الثالث هو الأكبر في هذا الباب باعتبار "الخصائص" مؤلَّف في أصول النحو في المقام الأوّل. ويهدف هذا القسم إلى تسهيل تعقُّبنا لتجلّيات الحكمة في الظواهر اللغويّة والنحويّة التي يعرض لها ابن جنّيّ في كتابه.

ألف. حدّ الحكمة

اختلفت التعريفات التي تشرح معنى الحكمة في المعاجم العربيّة، فقد جاء في معجم العين للخليل (تـ١٧٥هـ):[٣٣] "الحكمةُ مرجِعُها إلى العَدل والعِلم والحِلم. ويُقال أحكمته التجارب إذا كان حكيمًا". وفي صحاح الجوهريّ (تـ ٣٩٣هـ):[٣٤] "الحُكم مصدر قولك حَكَمَ بينهم يحكُمُ أي قضى. والحُكم أيضًا: الحكمة من العلم. والحكيم العالم وصاحب الحكمة. والحكيم المتقِن للأمور. وقد حَكُم بضمّ الكاف أي صار حكيمًا". وفي لسان العرب لابن منظور (تـ ٧١١هـ):[٣٥] "حَكَمَ: منَع وردَّ، أي منع من الفساد". وقد تأتي الحكمة بمعنى العلم، وهي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، والإصابة في القول والعمل.[٣٦] وجاء في المعجم الوسيط[٣٧]

---

[٣٣] *كتاب العين*، الخليل بن أحمد الفراهيدي، مادة (حكم).

[٣٤] *الصحاح*، الجوهريّ، مادة (حكم).

[٣٥] *لسان العرب*، ابن منظور، مادة (حكم).

[٣٦] *نظريّة المعرفة بين القرآن والفلسفة*، راجح عبد الحميد الكردي، ص ٥٨.

[٣٧] *المعجم الوسيط*، مجمع اللغة العربية، مادة (حكم).

أيضًا: "وكلام الحكمة هو الكلام الذي يَقِلّ لفظه ويجلُّ معناه والجمع حِكَم"؛ وهذا التعريف يناسب معنى الشرف الذي تطرّق إليه ابن جنّيّ في "الخصائص".

ويربط أحد الدّارسين الحكمة بالمحيط الذي يعيش فيه الحكيم بما فيه من أشخاص وأشياء، فيقول: "نلاحظ أن كلمة "حكمة" تحيلنا إلى كلمة "حكيم"؛ لأنّ الحكمة مرتبطة دائمًا بشخص ندعوه حكيمًا. وهي صفة يبدو بها سلوكه تجاه الأمور الطارئة في مواقف معيّنة".[٣٨]

وبالتالي ارتبطت الحكمة باللغة أيضًا؛ فاللغة من أُسس العلاقات التي يكوّنها المرء مع محيطه وهي نتيجة تجارب حيّة طويلة مرّت بها الأمّة حتى صارت "مستودع نظرتها وحكمتها"،[٣٩] وفي ظواهرها المختلفة تنعكس حكمة العربيّ الذي سعى إلى تقعيد لغته ليحفظها من الفساد واللحن. هذا ضربٌ من الحكمة كما أشار صاحب اللسان: "الحكمة: المنعُ من الفساد".[٤٠]

باء. مفهوم الحكمة في التراث العربيّ: استعمالاتها في الفنون المختلفة

إنّ العرب لم تنطق عن عبث، وقد كشف اللغويّون —وعلى رأسهم ابن جنّيّ— أن في اللغة ظواهر تدلّ دلالةً قويّة على حكمة كامنة فيها. ولا يخفى أنّ الحكمة باب واسع في الأدب وغرضٌ معروف من أغراضه، وقد وارتبطت الحكمة بالعلوم الدينيّة بشكل عام، وبعلم الفقه وأصوله بشكل خاص، وبالمدارس الكلاميّة والفلسفيّة وغيرها من العلوم والفنون كالنحو مثلًا الذي نال منها حظًّا وفيرًا.

بدأت الحكمة في العصر الجاهليّ على صورة أبياتٍ متناثرة في القصائد، كقول أحد الشعراء:

---

[٣٨] *الفلسفة ومعنى الحكمة*، تيسير شيخ الأرض، ص ٩.

[٣٩] نفسه، ص ٦٨.

[٤٠] *لسان العرب*، ابن منظور، ١٢/١٤٠.

إذا كنتَ ملتمسًا حاجة فأرسل حكيمًا ولا توصه[41]

وكقول النَمْر بن تولب:[42]

وأبْغِضْ بغيضَكَ بُغضًا رويدًا إذا أنتَ حاولتَ أن تحْكُما

وقد قال فيه الأصمعيّ: أي إذا حاولت أن تكون حكيمًا.

وقد وصف أحد الدارسين شكل الحكمة عند العرب القدماء قائلًا: "الجاهليّون أرادوا بالحكمة الحكايات والأمثلة التي تعلّم وتَعِظ الإنسان، تُقال ليتَّعظ الشخص بها طوال حياته وليسير على وفق هدى هذه الحِكم. ولذلك نُسبت الحكم إلى أُناسٍ مجرّبين أذكياء لهم صفاء ذهن وقوّة ملاحظة وفكر راسخ".[43] ثمّ اتّخذت الحكمة فيما بعد، وتحديدًا في العصر العباسيّ —كما يرى فرّوخ— شكل القصيدة الكاملة عند أبي تمام والمتنبّي والمعرّي وغيرهم.[44]

ومن الأمثلة الصريحة على حكمة العرب في التراث العربي استعمال جوامع الكلم، وهي عبارات قصيرةٌ مقتضبة تحمل معنًى بليغًا دون أن تتّسق في نظامٍ معيّن، لذا أُدرجت في "باب الحكمة"، لا في "باب الفلسفة"، كما قرّره فروخ.[45] فاختيار الكلمة المناسبة التي تحمل الإيجاز والبلاغة في آنٍ واحد فعلٌ يحتاج إلى

---

[41] *الحكمة في الشعر الجاهلي*، عبد الوهاب خير بك، ص ١٠٣.

[42] *الصحاح*، الجوهريّ، ص ١٩٠١.

[43] *المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، علي جواد، ٣٣٩/٨.

[44] *عبقريّة العرب في العلم والفلسفة*، عمر فروخ، ص ٤٧–٤٨.

[45] نفسه، ص ٤٠.

الحنكة والحكمة. وقد اشتهر العرب باستعمال جوامع الكلم لأنّها تجري على ألسنة العلماء كما العامّة؛ بخلاف الأُمم الأخرى إذ ينحصر استخدام هذا الأسلوب بحكماء القوم وعلمائهم.[٤٦]

وتكثر العبارات التي تصنَّف أنّها من جوامع الكلم في الحديث النبويّ الشريف، وفي بعض ضروب الشعر، وكانت مدارَ اهتمام اللغويّين لِما فيها من إيجاز وتركيز ولِما قد تتضمّنه من ظواهر لغويّة خاصّة بها.[٤٧]

جيم. مفهوم الحكمة في التراث النحويّ واللغويّ

لمّا كان كتاب الخصائص مؤلَّفًا في أصول النحو، ارتأينا التمهيدَ لمفهوم الحكمة بدراسة نشأته وتطوّره من بداية التأليف النحويّ، وأعني بذلك البدايات الأولى —عصر أبي الأسود الدؤليّ وتلاميذه— وصولًا إلى القرن الرابع —عصر ابن جنّيّ. وسنقوم في هذا القسم بتتبّع أبرز الإشارات إلى مفهوم الحكمة عند اللغويّين والنحويّين القدماء الذين انطلقوا في أعمالهم من التسليم بقدسيّة كتابهم وشرف لغته وفضلها على سائر اللغات. وبناءً على ذلك سنحدّد المفهوم العامّ للحكمة وتطوّره. ذلك أنّ من مسالك العلماء النظر في إشارات من سبقهم والتوسّع فيها "فكم من دقيقةٍ أخذها سيبويه عن الخليل ثمّ أتى بأمثالها وقاس عليها حتّى جعل من الدقيقة بابًا كاملًا. وكم من إشارةٍ ألمح إليها الفارسيّ فإذا هي عند تلميذه الذكيّ ابن جنّيّ أصل واسع وموضوع ضخم".[٤٨] لذا سنتتبّع في هذا القسم، كما في سائر الأقسام، مناهج الأقدمين بحثًا عن مفهوم

---

[٤٦] نفسه.

[٤٧] نفسه.

[٤٨] *النحو العربي*، مازن المبارك، ص ٢٨–٢٩.

الحكمة، وهو كثيرًا ما يكون متضمَّنًا في الإشارات والتلميحات، التي تقتضي البحث عنها وتقصّيها من بدايات النشاط النحويّ في القرن الثاني للهجرة.

والمعتمَد في هذه الدراسة تقسيم تاريخ النحو العربيّ إلى ثلاث مراحل أساسيّة بناءً على أن "الكتاب" لسيبويه يشكّل النقطة المركزيّة لأيّ دراسةٍ تتعلّق بالتراث العربيّ،[٤٩] وهذه المراحل هي:

مرحلة ما قبل الكتاب: المرحلة التأسيسيّة لنشوء الحكمة، من أبي الأسود الدؤليّ (تـ ٦٩ هـ) حتى نهاية القرن الثاني الهجريّ.

مرحلة الكتاب: مرحلة الخليل (تـ ١٧٥ هـ) وسيبويه (تـ ١٨٠ هـ)، أي مرحلة إرساء النظريّة النحويّة وظهور المعالم الأولى لمفهوم الحكمة في نهاية القرن الثاني الهجريّ.

مرحلة ما بعد الكتاب: مرحلة نضوج مفهوم الحكمة والتوسّع والتعمّق في النظريّة النحويّة، وذلك في القرنين الثالث والرابع. وسنفرد لهذه المرحلة الأبواب اللاحقة من هذه الدراسة.

قد استعمل العرب لغتهم في خطاباتهم ومعاملاتهم اليوميّة، ونظموا بها الأشعار ودبّجوا الخُطَب دون أن يلحنوا إلّا فيما نَدَر. وقد صدروا في ذلك عن سليقة لغويّة يتمتّع بها أبناء اللغة في العربيّة وسائر اللغات. ثمّ تفشّى اللحن بين العرب بعد انفتاحهم على غيرهم من الشعوب وازدياد اتّصال لسانهم بألسنة أقوام آخرين. حينئذٍ أخذ النحاة على عاتقهم ضبط اللغة وحفظها، فاستخرجوا القوانين والقواعد التي ترسم الحدود الفاصلة

[٤٩] R. Baalbaki, *The book in the Grammatical Tradition*, p 124.

بين الخطأ والصواب وتميّز بين السقيم والسليم في كلام العرب. فاللغة، كما يرى عفيف دمشقيّة، ظاهرةٌ اجتماعيّة لا بُدّ أن تخضع —كغيرها من الظواهر— لقوانين منظِّمة وضابطة.[٥٠]

انطلقت بدايات التأليف النحويّ باستقراء المادّة اللغويّة التي جُمعت وسُمعت عن العرب الأقحاح، أصحاب اللغة بالفطرة والسليقة. ثمّ تحصّل من هذا الاستقراء استنباطُ الأحكام والقوانين على أيدي النُحاة — أهل الصنعة— فكانت لنا مجموعةٌ من المبادئ والقواعد اللسانيّة واللغويّة، التي أخذت تنمو حتى صارت علمًا متكاملًا عُرف بأسم النحو.[٥١] وقد عرف النحو في بداياته اضطرابًا لم يستقرّ إلاّ باستقرار المصطلحات والمبادئ،[٥٢] فقد كان النحو يأخذ تارةً منحًى بلاغيًّا في تحديد وظيفة الكلمة في الجملة ودراسة تراكيبها، ويأخذ تارةً أخرى منحًى نقديًّا في تتبّع سقطات الشعراء كما حصل بين ابن أبي إسحق الحضرميّ والفرزدق.[٥٣]

هذه المراحل التي اجتازها علم النحو أثمرت عن ظهور كتابٍ مُمَنهجٍ ومبوّب، هو "الكتاب" لسيبويه،[٥٤] فقد أرسى صاحبُه في مؤلَّفه الضخم قواعد النحو وأصوله، ووضع به الحجر الأساس لأيّ نصٍّ نحويّ أو

---

[٥٠] انظر: *تجديد النحو العربيّ*، عفيف دمشقيّة، ص ٩.

[٥١] للتوسّع في موضوع "نشأة النحو" والأسباب التي دفعت النُحاة إلى وضع هذا العلم، انظر: *تجديد النحو العربيّ*، عفيف دمشقيّة، ص ٩–١١؛ و *النحو العربيّ*، مازن المبارك، ص ٨–١٠.

[٥٢] للتوسّع أكثرعن تاريخ نشأة النحو، انظر: *نشأة النحو العربيّ: مقترب تاريخيّ*، مصلح النجّار وأفنان النجّار، الجامعة الأردنيّة – عمّان.

[٥٣] *النحو العربيّ*، مازن المبارك، ص ٤٦.

[٥٤] *النحو العربيّ*، مازن المبارك، ص ٤٦. راجع أيضًا: *أخبار النحويّين البصريّين*، السيرافيّ، ص ١٠–١١؛ *وطبقات النحويّين واللغويّين*، الزبيديّ، ص ٢١–٢٣–٢٦.

صرفيّ جاء من بعده. ولا شكّ أنّ هذه الثمرة الناضجة أينعت من بذورٍ زَرَعَها النُّحاة قبل سيبويه.[٥٥] والدليل على ذلك أنّه لم يتحرّج عن ذكر سابقيه من علماء النحو[٥٦] كالخليل ويونس بن حبيب وأبي عمرو بن العلاء والأخفش الأكبر وغيرهم.[٥٧]

يمكننا الركون إذًا إلى أنّ "الكتاب" هو النصّ الموَثَّق الأوَّل الذي وصلنا في تاريخ التأليف النحويّ،[٥٨] دون الخوض في مسألة المؤلّفات النحويّة التي سبقت الكتاب، أعني ما وصلنا منسوبًا خطأً إلى خلف الأحمر (تـ ١٨٠ هـ)،[٥٩] وما لم يصلنا منها —أعني الكتابين المنسوبين لعيسى بن عمر (تـ ١٤٩ هـ) "الجامع" و"الإكمال" أو "المكمل"—[٦٠] سوى ما قاله الخليل فيهما:[٦١]

بطلَ النحو جميعًا كلُّه غيرَ ما أحدث عيسى بن عُمَرْ

ذاك "إكمال" وهذا "جامع" فهما للناس شمسٌ وقَمَرْ

---

[٥٥] *النحو العربيّ*، مازن المبارك، ص ١٠.

[٥٦] R. Baalbaki, *The book in the Grammatical Tradition*, p 127.

[٥٧] *الوحدة الداخليّة في كتاب سيبويه*، رمزي بعلبكي، ص ١٢٣.

[٥٨] نفسه، الهامش رقم (١) ص ١٢٢.

[٥٩] للتوسّع انظر مقالة رافي طلمون: *كتاب "مقدّمة في النحو" المنسوب إلى خلف الأحمر دراسة وفهرس ومصطلحات*، مجلة الكرمل– أبحاث في اللغة والأدب، العدد (١١) عام ١٩٩٠.

[٦٠] R. Baalbaki, *The book in the Grammatical Tradition*, p 127.

[٦١] *طبقات النحويّين واللغويّين*، الزبيديّ، ص ٢٣.

وتقوم هذه الدراسة على قاعدتيْن أساسيّتين، الأولى: أن الظواهر اللغويّة تحمل إشارات ودلالات على حكمة العربيّ. وغرضنا في كلّ ذلك، إيجاد العلاقة التي تجمع بين الظواهر اللغويّة والنحويّة —بما فيها من دلالات مباشرة وغير مباشرة— وبين تركيبة البنية العقليّة عند العربيّ للإبانة عن وجه الحكمة فيها. ولا شكّ أن تعقّب هذه الإشارات والدلالات يفضي إلى الكشف عن البنية العقليّة عند العرب، تلك البنية التي تبدّت في ظواهر لغويّة ونحويّة يمكن نسبتُها إلى الحكمة.

أما القاعدة الثانية فهي ربط مفهوم الحكمة بوسائل التحليل النحويّ، وتحديدًا القياس والعلّة. فالقياس هو العماد الأوّل في علم النحو وأوّل أدواته من حيث النشأة والاستعمال. ولا شكّ أنّ التعليل هو الركن الأساس في القياس، أي عموده الفقريّ. وقد استقى النُحاة المادّة اللغويّة عن البُداة فقاسوا عليها وبنوا أحكام النحو وأسسه. أما العلّة فبِها تسوَّغ الظواهر اللغويّة وبها يتبيّن أن تلك الظواهر مردّها إلى الحكمة ولم تنشأ مصادفةً أو اعتباطًا.

وفيما يلي عرضٌ لنشأة مفهوم الحكمة وتطوّره بالتوازي مع نشأة علم النحو، من خلال المراحل الثلاث المذكورة آنفًا.

١. *مرحلة ما قبل الكتاب*

هي المرحلة التأسيسيّة لنشوء مفهوم الحكمة. وقد اكتفى النُحاة خلالها بتضمين آرائهم مفهومَ الحكمة دون التصريح. وتمتدّ هذه المرحلة من منتصف القرن الأوّل للهجرة على يد أبي الأسود الدؤلي المتوفّى سنة ٦٩ للهجرة حتى نهاية القرن الثاني الهجريّ، ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام رئيسة هي:

١٠١- مرحلة أبي الأسود الدؤليّ:

اتّسمت هذه المرحلة بالاضطراب، ومَرَدّ ذلك إلى اختلاف الروايات عن النشأة الأولى لعلم النحو. وقد نقلت المصادر روايات متعدّدة حول الواضع الأوّل والسبب الذي حمله على ذلك؛ منها رواية أبي الطيّب اللغويّ والزبيديّ وابن النديم وابن عساكر والسيرافيّ وابن الأنباريّ والقفطيّ وياقوت وابن خلدون وابن فارس.[٦٢] وقد أجمع هؤلاء باستثناء ابن فارس، على أوّلية أبي الأسود. وقد زاد بعضهم—كابن عساكر[٦٣] والأنباريّ— أن لأبي الأسود كتابًا في النحو عنوانه "المختصر". أمّا ابن الأنباري والقفطي فأوردا قولين اثنين، أوّلهما ما ذكرناه، والثاني يقول بأوّلية الإمام عليّ، إذ نسبوا إليه وضع صحيفة في النحو أعطاها لأبي الأسود فانتحى ما فيها ووضع شيئًا في النحو.

أما ابن فارس (تـ ٣٩٥هـ) فيرى أنّ أبا الأسود قد جدّد النحو، إذ يقول: "فإن قال قائل: فقد تواترت الرّوايات بأن أبا الأسود أولُ من وضع العربيّة، وأن الخليل أول من تكلم في العروض. قيل له: نحن لا ننكر ذلك، بل نقول إن هذين العِلْمَين قَدْ كانا قديمًا وأتت عليهما الأيام وقلّا في أيدي الناس، ثُمَّ جدّدهما هذان الإمامان".[٦٤] وقد خالفه ابن جنّيّ في ذلك، إذ نقل أن عليًّا رسم لأبي الأسود طريقًا يمشي عليه.[٦٥]

---

[٦٢] للتوسّع راجع: *النحو العربيّ*، مازن المبارك، ص ١٠-٢٥.

[٦٣] *تهذيب ابن عساكر*، ابن عساكر، ٧/ ١١٠-١١١.

[٦٤] *الصاحبي*، ابن فارس، باب القول على الخط العربيّ وأوّل من كتب به ١/١٧.

[٦٥] *الخصائص*، ابن جنّيّ، ١/١١٦.

ومن العلماء من قال بأوّليّة نصر بن عاصم الدؤليّ (تـ ٨٩هـ)،[٦٦] أو عبد الرحمٰن بن هرمز (تـ ١١٧هـ). غير أنّ معظم العلماء رجّحوا أبا الأسود على من عداه،[٦٧] ونسبوا إليه وضع شيء من قواعد النحو، كباب الفاعل والمفعول والمضاف وحروف الرفع والنصب والجرّ والجزم، كما أسّس —فيما نقلوه— للنحو أبوابَه ووضع المدماك الأوّل في نهجه، فكان أوّلُ ما ظهر القياس.[٦٨]

ولعلّ القياس من أكثر ما يعكس صورة الحكمة في منطق العرب فيما نُسب لأبي الأسود من صنيع، فقد اعتمد في وضع الأُسس الأولى للرفع والنصب والجرّ على ما نطقت به العرب سليقةً —شأنه شأن من جاء بعده في استنباط الأحكام من المادّة المسموعة عن الأعراب. وقد اعتمد أبو الأسود على ما نطقت به العرب في وضعه الضوابطَ في تقسيم الرفع والنصب والجرّ، علمًا بأن العرب لم تَصْدر في استخدامها الرفع أو النصب أو الجرّ أو الجزم عن علّة مُدْرَكة بالعقل، بل بالسليقة. ولا غرو أنّ ابن جنّيّ كان يرى في هذا أدلّ شيء على حكمة العرب في كلامها.[٦٩]

وممّا يَحْسُن ذكرُه أنّ أبا الأسود لم يكن أوّل مَن شقّ طريق النحو فحسب، بل كان أيضًا أوّل معلّمٍ جاءت على ذكره المراجع.[٧٠] فقد كان له نفرٌ من التلاميذ أخذوا عنه وزادوا على النحو ووسّعوا قواعده.[٧١]

---

[٦٦] ويُقال الليثي.

[٦٧] للتوسّع راجع: *النحو العربيّ*، مازن المبارك، ص ٧– ٢٧–٢٨؛ و*نزهة الألباء*، ابن الأنباريّ، ص ٦.

[٦٨] *طبقات النحويّين واللغويّين*، الزبيديّ، ص ٢١.

[٦٩] انظر *الخصائص*، ابن جنّيّ، ٢٣٨/١.

[٧٠] *النحو العربيّ*، مازن المبارك، ص ٣٩.

[٧١] نفسه، ص ١٣.

٢٠١- الجيل الأوّل من التلاميذ: مرحلة النظر والاستقراء

تشكّلت خلال هذه المرحلة الأُسس التي بُنيَ عليها علم النحو كما نعرفه اليوم. وقد كثُرت الروايات التي تُجمع على أنّ لأبي أسود مريدين تعلّموا منه وأخذوا عنه، صنّفهم أبو الطيّب اللغويّ في طبقاته[٧٢] على درجاتٍ[٧٣] بلغ عنبسة بن معدان المهريّ أعلاها، يليه ميمون الأقرن وابن أبي إسحق الحضرميّ.[٧٤]

ولقد حفظت لنا المراجع والتراجم أسماء بعض تلاميذ الدؤليّ من القرّاء والعاملين في اللغة كعبد الرحمٰن بن هرمز ونصر بن عاصم الليثيّ وعنبسة الفيل وميمون الأقرن ويحيى بن يَعْمر وعطاء بن أبي الأسود الدؤليّ...[٧٥] ونستخلص من تراجم هؤلاء أهميّة آرائهم التي أسهمت في تطوّر النحو، وبالتالي نموّ مفهوم الحكمة بالتوازي مع هذا التطوّر؛ إذ تميّزت هذه المرحلة بالتوسّع في استخدام الاستقراء وبمزيد من التعمّق في المسائل اللغويّة. ولعلّ من المتوقّع في بدايات أيّ علم أن يعترض واضعيه بعضُ المشكلات في مقاربة المسائل اللغويّة والنحويّة، فيعمد أصحاب الصنعة إلى وضع النظريّات واستخلاص الاستنتاجات ومناقشتها وتبادل وجهات النظر فيها، وسبر أغوار اللغة وأسرارها في سبيل تخطّي هذه العقبات. ثمّ تتراكم هذه النظريّات والاستنتاجات؛ وتتكامل بذلك النظريّة النحويّة التي شكّلت فيما بعد علم النحو بصورته الحاليّة.[٧٦]

---

[٧٢] *مراتب النحويين*، أبو الطيّب اللغويّ، ص ١٢. راجع أيضًا: *النحو العربي*، مازن المبارك، ص ١٣.

[٧٣] *تجديد النحو العربيّ*، عفيف دمشقيّة، ص ١٠٥. راجع أيضًا: *إنباه الرواة على أنباه النحاة*، القفطي، ٣٨٢/٢.

[٧٤] *أخبار النحويّين البصريّين*، السيرافي، ص ١٩.

[٧٥] انظر : *تجديد النحو العربيّ*، عفيف دمشقيّة، ص ١٠٥-١١٠.

[٧٦] انظر : *تجديد النحو العربيّ*، عفيف دمشقيّة، ص ١١٠-١١٥.

نجد إذًا في عمل هؤلاء النحاة ما يدلّ على محاولاتهم جمع اللغة في إطارٍ واحد، بُغية الإضاءة على تكاملها. هذا التكامل اللغويّ —الذي سعى العلماء إلى إظهاره من البدايات الأولى— إنما هو انعكاس لِما في هذه اللغة من الحكمة. فلم يضع أهلُ الصنعة نظرية نحويّة أو لغويّة من غير تبصّر ودراية؛ بل سمعوا وواجهوا، فاستنبطوا واستنتجوا ليقيموا أُسس "الدار المُحكمة البناء"[٧٧] بحسب تعبير الخليل.

أما أبرز نحاة الجيل الأوّل، الذين انعكس مفهوم الحكمة في عملهم، فٱبن أبي إسحق الحضرميّ (تـ ١١٧هـ)، وهو الذي وصفه أبو الطيّب اللغويّ بـ"أعلم أهل البصرة"[٧٨] ومن نُحاتها الأوائل. وقد غالى بعض المؤرّخين حين ذهب إلى أنّه المؤسّس الأوّل للمدرسة البصريّة كما نعرفها اليوم.[٧٩] وينسب إلى الحضرميّ أنّه بَعَجَ النحو أي فرّعه بخروجه عن دائرة النقل البسيط ودخوله في دائرةٍ أوسع، دائرة التعليل والتطلّع إلى الأسباب ووضع النظريّات لشرح الظواهر اللغويّة.[٨٠] كما أقام لنفسه مذهبًا خاصًّا أظهر فيه ميله إلى القياس، باعتباره وسيلة لتفسير الأحكام والقوانين أو تعميمها. ولعلّ هذا ما أراده الزبيديّ حين قال: "أوّل من بعج النحو ومدّ القياس وشرح العلل وكان مائلًا إلى القياس في النحو".[٨١]

---

[٧٧] *الإيضاح في علم النحو*، الزجاجيّ، ص ٦٥-٦٦.

[٧٨] *مراتب النحويّين*، أبو الطيّب اللغويّ، ص ١٢.

[٧٩] *تجديد النحو العربيّ*، عفيف دمشقيّة، ص ١١٩.

[٨٠] *تجديد النحو العربيّ*، عفيف دمشقيّة، ص ١١٩.

[٨١] *طبقات النحويّين واللغويّين*، الزبيدي، ص ٣١.

عِلاوةً على ذلك كان الحضرميّ سببًا في فتح بابين في اللغة: الأول باب النقد اللغويّ في مواقفه مع الفرزدق،[٨٢] "فأقام للنُحاة سُلطانًا على رجال الأدب"[٨٣] وانقلبت الموازين بخضوع أهل الأدب لقواعد النحاة وقياسهم. ولعلّ هذا ما أتاح للنحاة ألا يكتفوا بوصف الظواهر اللغويّة بل تعدَّوْها إلى الشرح والتعليل، فانفتح لهم واسعًا مجالُ الحديث عن مكامن الحكمة في تلك الظواهر، انطلاقًا من أنّ الالتزام بالقواعد النحويّة — كما يراها النحاة— إنما هو إقرارٌ بأنها ليست ظواهر اعتباطيّة بل قواعد مقرَّرة وثابتة، وبذا تنمّ عن اتّساق فكريّ يتعيّن الالتزام به. والثاني باب التأليف في اللغة، إذ أولى الحضرميّ الهمز اهتمامًا كبيرًا، وتكلّم فيه حتى صار بارعًا وعمل كتابًا ممّا أملاه.[٨٤]

٣٠١- الجيل الثاني من التلاميذ: مرحلة بداية التأليف النحويّ

لم يصلنا أيّ أثر لمؤلَّفات نحويّة وُضعت في هذه الفترة —أي قبل "الكتاب"— غيرَ بعض المحاولات التي ذكرتها المصادر ككتابَي "الجامع" و"الإكمال" لعيسى بن عمر،[٨٥] وكمحاولات الجيل الأوّل من تلاميذ الدؤليّ.[٨٦]

---

[٨٢] انظر : *أخبار النحويّين البصريّين*، السيرافي، ص ٢١؛ *وطبقات النحويّين واللغويّين*، الزبيديّ، ص ٣٢-٣٣؛ *وتجديد النحو العربيّ*، عفيف دمشقيّة، ص ١٢٠-١٢٥

[٨٣] *تجديد النحو العربيّ*، عفيف دمشقيّة، ص ١٢٤.

[٨٤] *مراتب النحويّين*، أبو الطيّب اللغويّ، ص ١٢. راجع أيضًا: *تجديد النحو العربيّ*، عفيف دمشقيّة، ص ١٢٥-١٢٦؛ *والنحو العربيّ*، مازن المبارك، ص ١٣.

[٨٥] *طبقات النحويّين واللغويّين*، الزبيديّ، ص ٢٢.

[٨٦] *تجديد النحو العربيّ*، عفيف دمشقيّة، ص ١١١.

ومهما يكن من أمر تلك المحاولات، لا يمكن التسليم بأنّ "الكتاب" قد نشأ من فراغ، إذ لا يمكن أن ننفي وجود محاولات أولى للتأليف النحويّ —مهما كان بدائيًّا— لمجرّد أنّ "الكتاب" هو المصنّف الشامل الأوّل الذي وصلنا. والدليل على ذلك ما في كتاب سيبويه من ذكر لآراء نحويّة سابقة أفاد منها في وضع كتابه على الصورة الكاملة التي وصلتنا.

وتقوم هذه المرحلة على طبقة أساتذة الخليل وسيبويه، الذين لا يرقى إلى وجودهم شكّ،[٨٧] أمثال أبي عمرو بن العلاء (تـ ١٤٥هـ) وعيسى بن عمر (تـ ١٤٩هـ) ويونس بن حبيب (تـ ١٨٢هـ).

وقد كان أبو عمرو بن العلاء تلميذ الحضرميّ فأخذ عنه ميله إلى القياس. وقد ذكر سيبويه أبا عمرو سبعًا وخمسين مرّة في الكتاب[٨٨] في مواضع تتعلّق بالقراءات القرآنيّة والنقول الشعريّة واستعمالات اللغة عند العرب، الأمر الذي حمل الزُّبيديّ على ذكره في الطبقة الرابعة من النحويّين البصريّين[٨٩] وفي الطبقة الثانية من اللغويّين البصريّين.[٩٠] وانطلاقًا ممّا سبق جاء تصنيفة لغويًّا lexicographer أكثر من كونه نحويًّا grammarian.[٩١] كما كان أبو عمرو من جِلّة القرّاء الموثوقين في هذا المجال، وكان واسع العلم بلُغَة العرب وكلامها وغريبها، وقد نُقل عنه روايات كثيرة في حقلي اللغة والنحو.[٩٢]

---

[٨٧] *تاريخ الأدب العربيّ*، كارل بروكلمان، ١٢٨/٢.

[٨٨] R. Baalbaki, *The book in the Grammatical Tradition,* p 126. انظر أيضًا:

G. Troupeau, *Lexique-index Du "Kitāb" De Sībawayhi*, 1976

[٨٩] *طبقات النحويّين واللغويّين*، الزبيديّ، ص ٣٥.

[٩٠] نفسه، ص ١٥٩.

[٩١] نفسه.

[٩٢] انظر أيضًا: *أخبار النحويّين البصريّين*، السيرافيّ، ص ١٠-١١.

ويتجلّى مفهوم الحكمة في مجالَي النحو واللغة عند ابن العلاء؛ وذلك في اعتماده القياس والتعليل أساسًا في عمله النحويّ ونظرته إلى العربيّة، مستندًا في ذلك إلى نهج أستاذه الحضرميّ. وقد عُني أبو عمرو بالقياس وتعليل بعض الظواهر اللغويّة والنحويّة، كتعليله ظاهرة الحذف في "يكن" واستعمال "يكُ" بدلًا منها،[٩٣] كما علّل الظواهر الشاذّة رغبةً منه في إظهار الوحدة اللغويّة وتحديد الاستعمالات الأكثر شيوعًا واطّرادًا في العربيّة. بذلك تظهر المعالم الأولى لمفهوم الحكمة، لأنّ الإبانة عن الانسجام اللغويّ —عن طريق القياس والتعليل— إنما هي إبانةٌ عن الحكمة الكامنة في أذهان المتكلّمين بالعربيّة.

وأما عيسى بن عمر فكان من أهل الطبقة الرابعة من النحويّين —طبقة أبي عمرو بن العلاء—[٩٤] والثانية من اللغويّين البصريّين.[٩٥] وعُرف بالفصاحة واستعمال الغريب وإلمامه بالقراءات،[٩٦] ورويَ عنه فيها، فذُكر في "الكتاب" عشرين مرّة.[٩٧]

وقد نحا عيسى بن عمر —صاحب الكتابين المفقودين "الإكمال" و"الجامع"— منحًى مختلفًا عن سابقيه، وذلك بترجيحه السماع على القياس.[٩٨] والدليل على ذلك ما أورده الزبيديّ في طبقاته عن مسألة "ليس الطيب إلا المسك" وكيف احتكم عيسى بن عمر إلى السماع.[٩٩] كما أظهر ميلًا لمقارنة الجمل بعضها ببعض، كأنْ

---

[٩٣] *الكتاب*، سيبويه، ٦٥/١.

[٩٤] نفسه، ص ٢٥.

[٩٥] نفسه، ص ٤١. انظر أيضًا: *أخبار النحويّين البصريّين*، السيرافيّ، ص ٢٥.

[٩٦] *طبقات النحويّين واللغويّين*، الزبيديّ، ص ٤١.

[٩٧] R. Baalbaki, *The book in the Grammatical Tradition,* p 126.

[٩٨] R. Baalbaki, *The book in the Grammatical Tradition,* p 126.

[٩٩] *طبقات النحويّين واللغويّين*، الزبيديّ، ص ٤٣–٤٤.

يحلّل جملتين متشابهتين تحليلًا متماثلًا موسِّعًا بذلك رقعة القياس.[١٠٠] ولئن أخذ عيسى بن عمر منحًى يختلف قليلًا عن معاصريه من النُحاة، فلقد فتح بذلك باب المقارنة والتحليل في النحو، وتوسّع في السماع. ولا يخفى أنّ في الآراء المنقولة عنه ما يُظهر مفهوم الحكمة عند العرب حين استعملت جملًا ذات بنية مُتقنة التركيب. وهذا الإتقان هو انعكاسٌ للحكمة، وقد جاء ابن منظور فيما بعد ليربط الحكمةَ بالإتقان فسمّى مَن أحسن دقائق الصناعات وأتقنها حكيمًا.[١٠١]

أما يونس بن حبيب فيمثّل مرحلةً جديدةً في التاريخ النحويّ، فقد كان تلميذ أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر، وأستاذ الخليل وسيبويه، وقد ذُكر في "الكتاب" مئتين وسبع عشرة مرّة.[١٠٢] وليونس فضلٌ بيّنٌ في تكوين شخصيّة سيبويه العلميّة وتهيئة المادّة النحويّة التي بُنيت عليها أبواب "الكتاب" الرئيسة.[١٠٣] وتشملُ نقول سيبويه عنه آراء تتعلّق بالقراءات والشعر والنثر وروايته عن سابقيه، لا سيّما منهم أبو عمرو بن العلاء، في مسائل السماع والاستعمال.[١٠٤] ويبدو أنّه لم يكن يروي إلّا ما وثق به، إذ يقول أبو عبيدة ما نصّه: "لم يكن عند يونس عِلم إلّا ما رآه بعينه".[١٠٥]

---

[١٠٠] نفسه.

[١٠١] *لسان العرب*، ابن منظور، مادّة "حكم" الجزء الرابع.

[١٠٢] R. Baalbaki, *The book in the Grammatical Tradition*, p 126.

[١٠٣] *تجديد النحو العربيّ*، عفيف دمشقيّة، ص ١٤٤ و ١٤٦.

[١٠٤] R. Baalbaki, *The book in the Grammatical Tradition*, p 126.

[١٠٥] *طبقات النحويّين واللغويّين*، الزبيديّ، ص ٥١.

وقد جمع يونس في منهجه السماع والقياس، فوسّع ما وضعه أستاذاه —عيسى بن عمر وأبو عمرو بن العلاء— في القياس، حتى تفرّد بمذهبٍ خاصٍّ به. وإلى ذلك اهتمّ باستعمال السماع واستخدام التعليل، شأنه شأن تلميذيه الخليل وسيبويه.[١٠٦]

نستخلص ممّا سبق أنّ يونس كان من أوائل النُحاة الذين وضعوا منهجًا محدّدًا للنحو ورسّخوا دعائم المدرسة البصريّة على ثلاثة أُسس وهي: السماع والقياس والتعليل.[١٠٧] وكثيرًا ما احتكم إلى التقدير في تحليله النحويّ وتوسّع في استخدامه حتى أصبح القياس النحويّ أكثر تعقيدًا. وانتظم بذلك الفكر النحويّ داخل إطارٍ واحدٍ مبنيّ على المبادئ الثلاثة المذكورة آنفًا.[١٠٨]

وفي هذه الفترة بلغ النحو أولى مراحل النُّضج التي اكتملت مع سيبويه في كتابه، واتّسم بالوضوح والعقلانيّة، ولم يتأثّر بالفكر الفلسفيّ إلّا في الفترات اللاحقة، ولا سيّما المتأخّرة منها.[١٠٩]

ومع يونس انتظمت النظريّات النحويّة وتعمّقت مبتعدةً عن البساطة التي اصطبغت بها سابقًا. ولا شكّ أنّ مفهوم الحكمة قد غدا أكثر تعقيدًا تزامنًا مع النحو ونشأته. فالتقدير الذي اعتمده يونس بن حبيب للبحث

---

[١٠٦] للتوسّع انظر: *أخبار النحويّين البصريّين*، السيرافيّ، ص ٢٧؛ *وتجديد النحو العربيّ*، عفيف دمشقيّة، ص ١٤٧؛ *والمفصّل في تاريخ النحو العربيّ*، محمّد خير الحلواني، ٢٢٩/١.

[١٠٧] *تجديد النحو العربيّ*، عفيف دمشقيّة، ص ١٤٧.

[١٠٨] للتوسّع انظر: *تجديد النحو العربيّ*، عفيف دمشقيّة، الفصل السابع "أساتذة سيبويه".

[١٠٩] انظر: *بغية الوعاة في طبقات اللغويّين والنحاة*، السيوطيّ، ١٨١/٢؛ *وتجديد النحو العربيّ*، عفيف دمشقيّة، ص ١٤٦؛ و R. Baalbaki, *The book in the Grammatical Tradition,* p 126.

عن العناصر المحذوفة أو المقدّرة يُظهر بوضوح أنه كان يسعى إلى تبيان الأسس التركيبيّة التي انطلق منها العرب في كلامهم، وما كان ذلك ليكون لولا الحكمة التي تميّزوا بها، وإن لم يُشِر إليها يونس إشارةً ظاهرة.

وقد كان للتطوّر الذي نلمسه في تاريخ النحو مع يونس —وبعده مع الخليل— أثر كبير في سيبويه، إمام النحاة الذي اقتدى بنظريّته النحويّة وأساليبه في تحليل المفردات والتراكيب كلّ من جاء بعده.

٢ . مرحلة الكتاب

أثمرت جهود يونس بن حبيب وسابقيه فأفاد منها الخليل وسيبويه، ودخل النحو معهما مرحلة الاكتمال والنضوج. وقد اتّسمت هذه المرحلة —قياسًا على ما سبقها— بالتعقيد في استخدام التعليل والقياس لإبراز ما في هذه اللغة من إتقانٍ في تكامل عناصرها.

وقد توسّع الخليل وسيبويه في استخدام القياس والتعليل لتفسير الظواهر اللغويّة عبر ربطها بعضها ببعض، وألزم نفسه بالبحث في كلّ ظاهرةٍ لغويّة أو نحويّة —تقريبًا— عن علّة يُعتلّ بها وسبب يُرجع إليه. وبهذا اكتملت عناصر النظريّة النحويّة وأُرسيت مصطلحات العلم وأدواته.

وجليٌّ أنّ سيبويه علّل الظواهر النحويّة استنادًا إلى اعتباره اللغة بناءً متناسق التركيب تتكاملُ أصوله وفروعه فتشكّل منظومةً متجانسة تنتظمها قوانين عامّة. ولا شكّ أنّ هذه النظرةَ موروثةٌ عن أستاذه الخليل الذي استخدم التعليل في محاولةٍ منه لكشف النقاب عن مكامن الحكمة في العربيّة. ونجدُ —كما مرّ في المقدّمة— مفهوم الحكمة كامنًا في أقدم نصّ معجميّ وصلنا للخليل، كما أنّ مفهوم الحكمة متضمّن في التعليلات الصرفيّة والنحويّة التي فصّلها سيبويه، والتي لا تكاد تفارق فصلًا من فصول الكتاب.[١١٠] ومنطلق

[١١٠] ارجع إلى المقدّمة: ص ١–٣.

هذه التعليلات أنّ الظواهر اللغويّة ليست اعتباطيّة بل هي نتاج حسّ لغويّ رفيع ينمّ عن حكمةٍ بالغة في استخدام اللغة نثرًا وشعرًا.

هذا وتُعدُّ حقبة "الكتاب" المرحلة الأساسيّة في تاريخ النشأة النحويّة، وذلك نتيجةً للتوسّع الذي شهده النحو على يدي الخليل وسيبويه. وقد شمل هذا التوسّع الظواهر النحويّة كافّة من حيث القياس والتعليل. وهذه الظواهر —كما أشرنا سابقًا— قديمة، وإنما اطّرد استخدامها مع هذين العالِمَيْن حين وُضعت الأحكام والقواعد ودُوّنت، الأمر الذي استلزم وجود أدواتٍ —كالقياس والتعليل— تساعد على نظم الظواهر اللغويّة تحت قاعدةٍ واحدة لتُعرف الظواهر الشاذّة من غيرها.

ويبدو أنّ الخليل بن أحمد كان أوّل من استخرج المسائل النحويّة وصحّح القياس فيها،[١١١] كما كان أوّل من بسط العلل النحويّة وتوسّع بها.[١١٢] وهو كما وصفه ابن جنّيّ "سيّد قومه وكاشف قناع القياس في عمله".[١١٣] صحيح أن الخليل لم يكن أوّل من اعتمد القياس في النحو —كما ذكر الأفغانيّ—[١١٤] بل سبقه شيوخه إلى ذلك، إلّا أنّه كان أبرز من عمّق القياس والتعليل وأظهر معالم علم النحو ووضع أُسسه ومناهجه، وبذلك صار المؤسّس الحقيقيّ لعلم النحو. وقد أشار الرازيّ إلى أنّ سيبويه قد جمع علوم كتابه نقلًا عن

---

[١١١] انظر : *أخبار النحويّين البصريّين*، السيرافيّ، ص ٣٠-٣١؛ *والفهرست*، ابن النديم، ص ٤٢؛ *وتجديد النحو العربيّ*، عفيف دمشقيّة، ص ١٥٤؛ و *في أصول اللغة والنحو*، فؤاد ترزي، ص ١٢١.

[١١٢] *الإيضاح في أصول النحو*، الزجاجيّ، ص ٦٥-٦٦. وانظر أيضًا: *في أصول اللغة والنحو*، فؤاد ترزي، ص ١٣١.

[١١٣] *الخصائص*، ابن جنّيّ، ٣٦١/١.

[١١٤] *في أصول النحو*، سعيد الأفغانيّ، ص ٨٤-٨٥.

أستاذه،[١١٥] بعد أن تلقّى عنه ونقل بالروايةً عليه في أكثر أبواب الكتاب،[١١٦] ليبلغ عدد المرات التي ذُكر فيها الخليل ستمائة وثماني مرّات.[١١٧] ويرى بعلبكي أنّه لا يمكن الفصل بين نظريّة سيبويه النحويّة وبين نظريّة الخليل بن أحمد، ويعود ذلك إلى أنّ الأخير هو أستاذ الأوّل ومرجعه، الذي جمع ونقل عنه كثيرًا من العلوم.[١١٨]

خلاصةُ الأمر إذًا أنّ الخليل قام بوضع الأسس والمعالم الواضحة لعلم النحو، تبِعه بذلك تلميذه سيبويه الذي قدّم بمؤلَّفه المرجع الأوّل لعلم النحو إلى يومنا هذا. ولم تقُم هذه الأُسس إلّا على مبدأ التكامل في اللغة حين ألمح الخليل إلى الوحدة اللغويّة، مشبِّهًا اللغة بالدار التي صحّت عنده حكمة بانيها. وهذا يفسّر وَلَعَ الخليل بتعليل الظواهر اللغويّة والنحويّة وربط الحجج والبراهين، فكأنّه بذلك يكشف عن تناسق الظواهر اللغويّة وصحّتها وتماسكها.

وعلى منواله مشى سيبويه، وعلى منوال سيبويه مشى مَن بعده، وصولًا إلى القرن الرابع الهجريّ حيث بلغت الصناعة النحويّة ذروتها في الاكتمال، ولا سيّما عند أبي عليّ الفارسيّ وتلميذه ابن جنّيّ. وفي تلك الفترة امتزجت الدراسة النحويّة بالمنطق، فغلب التعليل والقياس على التحليل النحويّ، مع ميل شديد لإظهار الحكمة في كلام العرب.[١١٩] وقد أشرنا في مقدّمة هذه الدراسة إلى أنّ ابن جنّيّ في كتاب الخصائص كان

---

[١١٥] *الاقتراح في أصول النحو*، السيوطيّ، ص ٢٠٥-٢٠٦.

[١١٦] *تاريخ الأدب العربيّ*، كارل بروكلمان، ١٣١/٢. وانظر أيضًا: *أخبار النحويّين البصريّين*، السيرافيّ، ص ٣٠-٣١.

[١١٧] R. Baalbaki, *TheBook in the Grammatical Tradition*, p 127.

[١١٨] نفسه.

[١١٩] انظر : *في أصول النحو*، سعيد الأفغانيّ، ص ٨٥-٨٦.

يتّخذ من الظواهر النحويّة من رفع ونصب وجرّ وحذف وزيادة وغيرها منطلقًا للإبانة عن حكمة العربيّة ورهافة حسّ أبنائها.[١٢٠]

٣. مرحلة ما بعد الكتاب

إذًا، بعد أن وضع نحاة القرن الثالث مناهج النحو وتعمّقوا في دراسة المسائل اللغويّة والنحويّة، جاء نحاة القرن الرابع كابن السرّاج (تـ ٣١٦هـ) وابن جنّيّ (تـ ٣٩٢هـ) ليمزجوا النحو بالمنطق ويقيموا الاعتبارات العقليّة في المسائل النحويّة، فتحوّل بذلك مفهوم حكمة العربيّة من إظهار الوحدة اللغويّة التي أثبتها الخليل إلى إظهار حكمة العرب من خلال منطقهم العقليّ أيضًا.

ويبدو أنّ ابن السرّاج كان أوّل من صرّح بمصطلح "الحكمة" بعد الخليل، إذ يذكر في مقدّمة كتاب "الأصول" في كلامه على اعتلالات النحويّين وتحديدًا على علّة العلّة ما نصّه: "وهذا ليس يكسبنا أن نتكلّم كما تكلّمت العرب، وإنّما نستخرج منه حكمتها في الأصول التي وضعتها، وتبيّن بها فضل هذه اللغة على غيرها من اللغات وقد وفر الله من الحكمة بحفظها وجعل فضلها غير مدفوع".[١٢١] ثمّ يتابع قائلًا: "وغرضي في هذا الكتاب ذكر العلّة التي إذا اطّردت وصل بها إلى كلامهم فقط، وذكر الأصول والشائع، لأنّه كتاب إيجاز".[١٢٢] هذا القول يؤكّد لنا أنّ ابن السرّاج قد ربط الحكمة بالعلّة، وهذا ما نلمسه في كتابه إذ إنّه كان يعلّل الظواهر الصرفيّة والنحويّة ويستدلّ على ما تختزنه من مسوّغات تدلّ على انتظامها وصحّة منطلَقاتها.

---

[١٢٠] *الخصائص*، ابن جنّيّ، ٣٣/١.

[١٢١] *الأصول في النحو*، ابن السرّاج، ص ٣٥.

[١٢٢] نفسه، ص ٣٦.

أمّا الزجّاجيّ (تـ ٣٣٧هـ) فلم يصرّح مباشرةً بمصطلح الحكمة، كما فعل ابن السرّاج، وإنما اكتفى بالإشارة إلى المفهوم وتضمينه في تعليقه على كلام الخليل عن الدار المُحكمة، موافقًا إيّاه بقوله: "وهذا كلام مستقيم وإنصاف من الخليل".[١٢٣]

وتأسيسًا على ما سبق يمكننا أن نفهم صنيع ابن جنّيّ في سياقه التاريخيّ. وسيكون كتابه "الخصائص" موضوع الباب الثاني من هذه الدراسة باعتباره "مَنْجَمًا" —إذا جاز التعبير— لدراسة مفهوم الحكمة في الظواهر اللغويّة والنحويّة على حدٍّ سواء.

[١٢٣] *الإيضاح*، الزجّاجيّ، ص ٦٦.

الفصل الثالث

دراسة في منهج الخصائص

شَهِدَ القرن الرابع الهجريّ، كما هو معلومٌ في تاريخ العلوم العربيّة والإسلاميّة، نهضةً علميّة في مختلف أنواع العلوم المتّصلة بالقرآن والشريعة والعقائد والشعر واللغة والنحو؛ نشطت على إثرها حركة التعليم والتأليف في مجالات متعدّدة كالفلسفة والمنطق والحساب والطبّ والفلك والكيمياء وغيرها. وانكبّ العرب على تعلّم اللغات الأجنبيّة، الأمر الذي أسهم في نموّ حركة الترجمة ونقل عدد كبير من الثقافات والعلوم عن الأمم القديمة، من فرس وهنود وسريان ويونانيّين، إلى العربيّة.[١٢٤] وقد دفعت هذه النهضة العلماءَ إلى التصرّف باللغة ومفرداتها، حين دعت الحاجة إلى وضع مصطلحات ومفردات تناسب الفنون والعلوم الجديدة. وفي هذا إشارة إلى مرونة اللغة وقدرتها على التوليد والتعريب ونقل ألفاظها من أفق إلى آخر ومن معنًى إلى آخر ومن دلالة إلى أُخرى، وفيه أيضًا دلالة على نموّ اللغة وطواعيتها في أن تكون لغة حيّةً مستمرةً مواكبةً للتطوّر العلميّ والثقافيّ.[١٢٥]

كذا اكتملت، في هذه الفترة، المذاهب الفقهيّة الأربعة، فتطوّرت بذلك مناهجُ التأليف في علوم الحديث والفقه. وهيّأ هذا الاجتهاد الفقهيّ واللغويّ الواسع إلى انتشار مذاهب ومدارس كانت سببًا في شيوع المناظرات

---

[١٢٤] *تاريخ الأدب العربيّ: العصر العباسيّ الثاني*، شوقي ضيف، ص ١١٥-١١٦.

[١٢٥] *تطوّر اللغة في العصر العباسي*، مجلّة مجمع اللغة العربيّة، شفيق جبري، ج٤/مجلّد ٤٤ ص ٦٨٧-٦٩٩.

والمُحاججات، فتسارع العلماء حينئذٍ إلى وضع الحجج والردود وتأليف المصنّفات والكتب في القراءات والتفاسير والأحاديث واللغة والنحو وغيرها.[١٢٦]

وكان من أهمّ ما أسهم في هذه النهضة العلميّة كثرةُ حلقات العلم والمناظرات في الفقه وعلم الكلام والنحو واللغة، التي كانت تُقام في المجالس والمساجد. وكان الشبّان يتردّدون إلى تلك الحلقات فيتعلّمون ويتفقّهون، وهذا ما حصل مع ابن جنّيّ (تـ ٣٩٢هـ) في قصّة اتّصاله بأستاذه الفارسيّ (تـ ٣٦٧هـ)؛ فقد رُوي أنّ ابن جنّيّ كان شابًّا يدرّس مسألة قلب الواو في جامع الموصل فاعترض عليه الفارسيّ حين قصَّر، وكانت هذه الحادثة سببًا في مرافقة ابن جنّيّ للفارسيّ وعنايته بالتصريف حتّى بلغ ما بلغ.[١٢٧] وعلى الرغم من تتلمذه على يد عدد من العلماء —منهم الفارسيّ— إلّا أنّه استقلّ بآرائه اللغويّة وتعليلاته وتأويلاته فأنشأ لنفسه مسلكًا خاصًّا به.

وقد بلغ مذهب الاعتزال ذروته في هذا العصر وكثُر أعلامه وأتباعه، حتّى بلغت آثاره مقرّ الخلافة الإسلاميّة وأعيان الدولة العبّاسيّة؛ فظهر جليًّا في الخصائص تأثّر ابن جنّيّ بالفكر الاعتزالي،[١٢٨] كما تأثّر

---

[١٢٦] *الخصائص*، ابن جنّيّ، ١٤٤/١.

[١٢٧] *مقدّمة الخصائص*، ص ١٩.

[١٢٨] كان ابن جنّيّ على مذهب الاعتزال كما صرّح بذلك السيوطيّ في المُزهر (١٠/١) "كان هو وشيخه أبو عليّ معتزليين"، وفي الأشباه والنظائر (٣٣٨/١): "ابن جنّيّ كان معتزليًّا كشيخه الفارسيّ". وقد تركت آراء المعتزلة الكلاميّة أثرًا بيّنًا في مواضع عديدة من مصنّفات ابن جنّيّ لا سيّما كتاب الخصائص. وممّا يدلّ على ذلك ما جاء في الكتاب المذكور، كقول ابن جنّيّ: "الحمد لله الواحد العدل القديم" (١/١)، وغير ذلك من الأقوال التي تقع في صلب معتقدات المعتزلة، تحديدًا نفي الصفات. كذا عقد بابًا في الخصائص سمّاه "بابًا في الحكم يقف بين الحكمين" (الخصائص ٣٥٨/٢ وما بعدها) محاكيًا بذلك مبدأ المعتزلة في المنزلة بين المنزلتين.

بالتأصيل الفقهيّ في بنائه لعلم أصول النحو على مذهب الفقهاء والمتكلّمين فقال: "اعلم أنّ علل النحويّين أقرب إلى علل المتكلّمين منها إلى علل المتفقّهين[١٢٩] وذلك أنّهم إنّما يحيلون على الحسّ ويحتجّون فيه بثقل الحال أو خفَّتها على النفس وليس كذلك علل الفقه لأنّها إنّما هي أعلامٌ وأماراتٌ لوقوع الأحكام وكثيرٌ منه لا يظهر فيه وجه الحكمة كالأحكام التعبّديّة بخلاف النحو فإنّ كلّه أو غالبه ممّا تدرك علّته وتظهر حكمته".[١٣٠] هذا وقد تأثّر ابن جنّيّ بالنهضة العلميّة التي شهدها عصره وانعكس ذلك في مؤلّفاته التي تجلّت فيها ثلاثة مظاهر أساسيّة هي: المظهر اللغويّ، والمظهر الفقهيّ، والمظهر الكلاميّ.[١٣١]

= وتجدر الإشارة إلى أن المعتزلة قد تناولوا قضايا فقهيّة لغويّة، أكثر ما تَرِد في كُتب الجاحظ وكتاب الخصائص؛ وقد اختلفوا حول الفرق بين الكلام والقول والمنطق. وقد ظهر تأثّر ابن جنّيّ بذلك في "باب القول على الفصل بين الكلام والقول" مستخدمًا في تحليله منطق الفلاسفة والمعتزلة.

للتوسّع، انظر: *الخصائص*، ابن جنّيّ، مقدّمة التحقيق ص ٤٤ وما بعدها؛ و*مقالات الإسلاميّين*، أبو الحسن الأشعريّ، ص ١٩٤؛ و*ابن جنّيّ النحويّ*، فاضل السامرائي، ص ٥٢ وما بعدها؛ و*أثر المعتزلة في الدرس النحويّ عند ابن جنّيّ*، عاشور محمّد، جامعة المنيا، ١٩٩٨؛ و*تاريخ المذاهب الإسلاميّة*، الإمام أبو زهرة، ص ١١٩؛ و*فقه اللغة في الكتب العربيّة*، عبده الراجحيّ، ص ١٩٠.

[١٢٩] عقد ابن جنّيّ بابًا كاملًا للتفريق بين علل الفقهاء والنُّحاة؛ ذلك أنّ أكثر علل الفقه تُعدّ من قبيل الظنّيّات والأمارات، في حين أن القياس النحويّ يقوم على اشتراط وجود العلّة. وقد ظهر ذلك في حرص النُّحاة على اكتشاف العلّة الكامنة وراء الظواهر اللغويّة ثمّ بناء القواعد عليها، كما صرّح بذلك سيبويه (الكتاب ٣٢/١): "وليس شيء ممّا يضطرون إلا وهم يحاولون به وجهًا".

للتوسّع، انظر: *التوظيف الأصوليّ للنحو*، عادل عبد الموجود، ص ١٠٩ وما بعدها.

[١٣٠] نفسه.

[١٣١] *تاريخ الأدب العربيّ: العصر العباسيّ الثاني*، شوقي ضيف، ص ١٦٠–١٦٨.

ألف. كتاب الخصائص:

اعتمد العلماء —ومنهم ابن جنّيّ— منهج التخصيص في الدراسات اللغويّة. فقد تناول في كتبه جوانب محدّدة من جوانب اللغة، كالتصريف في "المُنْصِف في شرح تصريف أبي عثمان المازنيّ" أو النحو ككتاب "اللُّمع"، أو دراسة الأصوات كما في "سرّ الصناعة". أما كتاب الخصاص فقد ترك بصمةً متميّزة في تاريخ دراسة اللغة عند العرب؛ فقد اعتمد ابن جنّيّ فيه منهجًا لم يكن معهودًا قبل ذلك كما صرّح في مقدّمته: "وذلك أنّا لم نرَ أحدًا من علماء البلدَين تعرض لعمل أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه".[١٣٢] وقد اشتمل الكتاب على رؤية ابن جنّيّ ونظرته في اللغة بعد أن وضع الأصول العامّة للدرس اللغويّ والنحويّ على مذهب أصول الكلام والفقه،[١٣٣] أي على طريقة شبيهة بمنهج الاستنباط الفقهيّ. ولا تزال هذه الأصول، بما فيها من قضايا لغويّة ومنهجيّة ودلاليّة، تشكّل عنصرًا أساسيًّا في الدراسات اللغويّة الحديثة إذ عوّل العلماء على مادّة الخصائص في دراساتهم اللاحقة.

ثمّ إنّ الناظر في مادّة الخصائص اللغويّة يجدها وفيرةً دقيقة، تنبع من ممارسة طويلة، وشغف ووعي كبيرين باللغة.[١٣٤] وهذه المادة مستمدّة من شيوخ ابن جنّيّ، وعلى الخصوص شيخه أبو عليّ الفارسيّ (تـ ٣٦٧هـ) الذي كان له الأثر الأكبر في نهجه وفكره. ولا يخفى أن ابن جنّيّ قد نقل عن شيخه بأمانة من غير

---

[١٣٢] *الخصائص*، ابن جنّيّ، ٢/١.

[١٣٣] *الخصائص*، ابن جنّيّ، ١٤٤/١.

[١٣٤] *فقه اللغة في الكتب العربيّة*، عبده الراجحيّ، ص ١٨٨.

أن يتحرّج في نسبة ما نقله عنه إليه.[١٣٥] كما يذكره مرارًا مثنيًا عليه، فتراه يقول بعد أن نقل عنه مسألةً في القياس: "فما كان أقوى قياسَه وأشدَّ بهذا العلم الشريف أنسَه"،[١٣٦] ويطيل الثناء عليه في هذا الموضع.

ولم يستمدّ ابن جنّيّ مادّته من أبي عليّ الفارسيّ فحسب، بل أخذ عن اللغويّين والنحويّين الأوائل كالخليل (تـ ١٧٥ هـ) وسيبويه (تـ ١٨٠ هـ) وأبي الحسن الأخفش (تـ ٢١٥ هـ) أيضًا، دون أن يمنعه ذلك من أن يستقلّ بآرائه ورؤيته أو يحول بينه وبين إنشاء منهجٍ خاصٍّ به.[١٣٧]

كذا يبدو جليًّا من عنوان الكتاب أنّ ابن جنّيّ اختار كلمةً توحي بالقوانين العامّة التي تنتظم بها اللغة العربيّة، معتمدًا في مقاربته للدرس اللغويّ منهجًا علميًّا ليضع القوانين والخصائص العامّة للّغة. وقد سعى ابن جنّيّ في الخصائص إلى تأسيس أصول النحو على منوالٍ مشابهٍ لأصول الفقه، وإلى تقوية العلل النحوية التي اشتهرت بالضعف مظهرًا حكمة العربيّة وشرف منزلتها. ويشير محقّق الخصائص في "باب ذكر علل العربيّة أكلاميّة هي أم فقهيّة؟" هدفَ ابن جنّيّ من مصنَّفه فيقول:[١٣٨] "لمّا كان همّ أبي الفتح في هذا الكتاب إبداء حكمة العرب وسداد مقاصدهم فيما أتوا في لغتهم، وكان ذلك بإبداء العلل لسننهم وخططهم في تأليف لسانهم أخذ نفسه في تقوية العلل التي تنسب إلى أفعالهم وتحمل عليهم؛ وهو ما يقوم به النحويّون. وكان من دواعي ذلك أن اشتهر بين الناس ضعف علل النحاة؛ فهذا ابن فارس (تـ ٣٩٥هـ) يقول:

مرّت بنا هيفاء مجدولة تركية تنمى لتركي

---

[١٣٥] *ابن جنّـيّ النحويّ*، فاضل السامرائي، ص ٤٣.

[١٣٦] *الخصائص*، ابن جنّيّ، ٢٧٨/١.

[١٣٧] *المدارس النحويّة*، شوقي ضيف، ص ٢٦٦.

[١٣٨] *الخصائص*، ابن جنّيّ، ٤٨/١.

ترنو بطرف فاتر فاتن أضعف من حجّة نحويّ"

والراجح أنّه لهذا السبب أفاض في بيان العلل النحويّة وأفرد لها أبوابًا كثيرة كـ "باب في أنّ العرب أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه إليها وحملناه عليها". وقد صرّح ابن جنّيّ في مواضع كثيرة[١٣٩] من الخصائص بأنّ غرضه الأساسيّ إظهار وجوه حكمة العربيّة وعظيم شرفها، فيقول: "وإنما أزيد في إيضاح هذه الفصول من هذا الكتاب لأنّه موضع الغرض فيه تقرير الأصول، وإحكام معاقدها، والتنبيه على شرف هذه اللغة وسداد مصادرها ومواردها".[١٤٠]

عِلاوةً على ذلك حاول ابن جنّيّ أن يضع قوانين كليّة للتصريف على غِرار علماء الكلام والفقه في وضع أصولهم؛ لذا فصّل الاطّراد والشذوذ في التصريف والنحو، وعرض عوامل الإعراب في الكلم معتبرًا المتكلّم هو العامل الحقيقيّ،[١٤١] وتحدّث أيضًا عن السماع والقياس في محاولةٍ منه لأن يُحيط باللغة من مستوياتها الأربعة التالية:[١٤٢]

١- المستوى الصوتي (Phonology)، ويختصّ بالمباحث الصوتيّة للغة. وقد تحدّث ابن جنّيّ في الخصائص عن نظام تركيب اللغة والعلاقة بين الحروف (الصوامت) والحركات (الصوائت)، ودلالتها خاصّة وتولّد الحركات الفرعيّة عنها. ومثال ذلك: "باب في مضارعة الحروف للحركات والحركات للحروف"؛ "باب في محل الحركات من الحروف معها أم قبلها"؛ "باب الساكن

---

[١٣٩] انظر الخصائص ١/١-٢-٣٢-٦٨-٧٨.

[١٤٠] *الخصائص*، ابن جنّيّ، ٧٨/١.

[١٤١] نفسه، ١٠٩/١ وما بعدها.

[١٤٢] *فقه اللغة في الكتب العربيّة*، عبده الراجحيّ، ص ٢٠-٢١.

والمتحرّك"؛ "باب في كمّيّة الحركات"؛ "باب في مطل الحركات"؛ "باب في مطل الحروف"؛ "باب في حرف اللين المجهول"...

٢- المستوى الصرفيّ (Morphology)، ويختصّ بالوحدات الصرفيّة والصيغ اللغوية. والمُلاحظ أن ابن جنّيّ قد تطرّق إلى مسائل صرفيّة كثيرة شغلت حيّزًا كبيرًا من كتابه كما في "باب في تداخل الأصول الثلاثيّة والرباعيّة والخماسيّة"؛ و"باب في المثلين كيف حالهما في الأصليّة والزيادة. وإذا كان أحدهما زائدًا فأيّهما هو؟"؛ و"باب في الأصلين يتقاربان في التركيب بالتقديم والتأخير"؛ و"باب في الاشتقاق الأكبر"؛ و"باب في الإدغام الأصغر".

٣- المستوى النحويّ (Grammar/ Syntax)، ويختصّ بالتراكيب وما يتّصل بها. ولا غَرو أن هذا الجانب —شأنه شأن الصرف— شغل حيّزًا كبيرًا في الخصائص. وتظهر أهميّة هذا الجانب في كثرة الأبواب المتّصلة به، مثل "باب في نقض المراتب إذا عرض هناك عارض"؛ و"باب في غلبة الفروع على الأصول"؛ و"باب في مراجعة الأصل الأقرب دون الأبعد"؛ و"باب فيما يراجع من الأصول ممّا لا يراجع"؛ و"باب في مراجعة أصل واستئناف فرع"...

٤- المستوى الدلاليّ (Semantics)، ويختصّ بالمعاني أي النظر في معاني المفردات والجمل والعبارات. ومن الأبواب التي تدلّ عليه: "باب فرق بين الحقيقة والمجاز"؛ و"باب في احتمال اللفظ الثقيل لضرورة التمثيل"؛ و"باب في الدلالة اللفظيّة والصناعيّة والمعنويّة"؛ و"باب في توجّه اللفظ الواحد إلى معنيين اثنين"؛ و"باب في تجاذب المعاني والإعراب"؛ و"باب في التفسير على المعنى دون اللفظ"؛ و"باب في قوّة اللفظ لقوّة المعنى"...

وعِلاوةً على هذه المستويات الأربعة لم يَفُتْه المستوى الفلسفيّ والمنطقيّ للغة، الذي استهلّ به كتابه مقاربًا فيه عموميّات اللغة. بمعنى أدقّ، تناول ابن جنّيّ المسائل التي توضح طبيعة اللغة وكنهها وعلاقة عناصرها ببعضها، وعلاقة العربيّة بالاعتقادات الدينيّة كـ "باب القول على اللغة وما هي؟" و"باب القول على أصل اللغة أإلهام هي أم اصطلاح؟" و"باب فيما يؤمّنه علم العربيّة من الاعتقادات الدينيّة" وغيرها.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الخصائص لم يكن موجّهًا لعموم الطلاب، وإنما لجمهور العلماء والباحثين على اختلاف مقاصدهم؛ يقول ابن جنّيّ: "وهو كتاب يتساهم ذوو النظر من المتكلّمين، والفقهاء، والمتفلسفين، والنحاة، والكتّاب، والمتأدّبين التأمّل له، والبحث عن مستودعه، فقد وجب أن يخاطب كل إنسان منهم بما يعتاده، ويأنس به؛ ليكون له سهم منه، وحصّة فيه".[١٤٣] نستنتج من كلّ ما سبق أن ابن جنّيّ سعى إلى تأسيس منهجٍ جديد للنظر في المستويات اللغويّة السابقة وتحليلها، أي وضع الأُسس العامّة لعلوم اللغة، وهذا يناظر ما عُرف لاحقًا بعلم أصول النحو.

باء. منهج ابن جنّيّ

اشتهر ابن جنّيّ —أكثر اشتُهر— بدراسة التصريف، وهو معروفٌ بـ"ميزان العربيّة".[١٤٤] قال ياقوت (تـ ٦٢٦هـ) في معجمه: "ولم يكن في شيء من علومه أكمل منه في التصريف ولم يتكلّم أحدٌ في التصريف أدقّ كلامًا منه"،[١٤٥] وجاء في نزهة الألبّاء: "وأمّا أبو الفتح عثمان بن جنّيّ النحويّ فإنّه كان من أحذق أهل

---

[١٤٣] نفسه، ٦٧/١.

[١٤٤] *الممتع الكبير في التصريف*، ابن عصفور، ٢٧/١.

[١٤٥] معجم *الأدباء*، ياقوت الحمويّ، ص ٨١/١٢.

الأدب وأعلمهم بعلم النحو والتصريف".[١٤٦] ويظهر ذلك في كتابه المنصف في شرح التصريف للمازنيّ (تـ ٢٤٩هـ)، إذ اعتنى به أيّما اعتناء؛ وقد جاء فيه ما نصّه: "التصريف وسيطة بين النحو واللغة يتجاذبانه، والاشتقاق أقعد في اللغة من التصريف. كما أنّ التصريف أقرب إلى النحو من الاشتقاق، يدلّك على ذلك أنك لا تكاد تجد كتابًا في النحو إلّا والتصريف في آخره... فالتصريف إنما هو لمعرفة أنفس الكلم الثابتة، والنحو إنما هو لمعرفة أحواله المتنقّلة".[١٤٧]

وقد عدّ العلماء الصرف والنحو صِنوَيْن لا يستغني أحدهما عن الآخر، فوضعوا أصولهما وقواعدهما متأثّرين بأصول الفقه وقواعده. وأشرنا في بداية الدراسة أنّ الحضرميَّ (تـ ١١٧هـ) والخليل (تـ ١٧٥هـ) قد اعتمدا على القياس والتعليل أساسين في دراسة النحو والصرف، ثمّ جاء سيبويه (تـ ١٨٠هـ) بعدهما ليضع "الكتاب" فيصبح المرجع الأوّل في النحو والصرف. ولم تكن الأصول النحويّة قد جُمعت قبل ابن جنّيّ في كتابٍ خاصّ وإنّما كانت منثورةً في ثنايا كلام العلماء. ولا بدّ أنّ ابن جنّيّ قد تنبّه إلى أهميّة هذا الصنيع، فوضع الخصائص كمحاولةٍ أولى لجمع الأصول النحويّة على مذهب أهل الفقه والكلام.[١٤٨] فالخصائص يرسي أصول الصنعة، كالعلّة والقياس والسماع وتركيب اللغات... ليخلُص إلى النظر في بنية "اللغة العميقة" ووضع المبادئ العامّة التي تنتظم اللغة بها.[١٤٩] ثمّ حذا ابن الأنباريّ (تـ ٥٧٧هـ) في كتابه "اللُّمع"،

---

[١٤٦] *نزهة الألبّاء*، الأنباريّ، ص ٢٢٨.

[١٤٧] *المنصف*، ابن جنّيّ، ١/٤.

[١٤٨] *فيض نشر الانشراح*، محمّد بن الطيّب الفاسيّ، ص ٧-٩.

[١٤٩] *الخصائص*، ابن جنّيّ، ١/٣٣ و ١/٤٧.

والسيوطيّ (تـ ٩١١هـ) في كتابه "الاقتراح" حذو ابن جنّيّ، ، فاستمدّا منه مادّته وزادا عليه بعض ما جمعاه من بطون الكتب.[١٥٠]

ولا يشكّ الناظر في هذه المباحث —أي علم أصول النحو وعلم أصول الفقه والكلام— في تأثّر أصول النحو بالفقه والمنطق. ولا ريب أن ابن جنّيّ ومَن جاء بعده استفادوا، في الاستدلال النحويّ ووضع المنهج والمصطلحات، من مناهج الفقهاء والمتكلّمين، وظهر ذلك في اعتمادهم على الأحكام العامّة التي سار عليها الفقهاء، في تأصيل القواعد النحويّة.[١٥١] وقد ذكر سعيد الأفغانيّ في معرض بحثه في أصول النحو ما وقع عليه من آثار العلوم الدينيّة في علوم اللغة، إذ يقول: "كان لهم [أي علماء اللغة والنحو] طرازهم في بناء القواعد على السماع والقياس والإجماع، وذلك أثر من آثار العلوم الدينيّة في علوم اللغة".[١٥٢] ويضيف مازن المبارك "وأمّا وجود الشبه بين النحويّ والفقيه فقد يكون في أنّ الفقيه يتلقّى الحديث من المحَدّثين فيتصرّف فيه تعليلًا واستنباطًا وقياسًا، وأنّ النحويّ يتلقّى اللغة عن أهلها ويتصرّف بها تصرّف الفقيه في الحديث".[١٥٣]

وقد اعتمد ابن جنّيّ على هذه الأدلّة وسيلةً لتقعيد الظواهر النحويّة وتأصيلها لينفرد بصبغةٍ نحويّة ذات طابع أصوليّ فقهيّ. وصرّح بذلك قائلًا: "وذلك أنّا لم نرَ أحدًا من علماء البلدَين تعرّض لعمل أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه؛ فأمّا كتاب أصول أبي بكر فلم يُلمم فيه بما نحن عليه إلا حرفًا أو حرفين

---

[١٥٠] *فيض نشر الانشراح*، محمّد بن الطيّب الفاسيّ، ص ٧–٩.

[١٥١] انظر: *وفيض نشر الانشراح*، محمّد بن الطيّب الفاسيّ، ص ٨٤٦–٨٥٨؛ *فقه اللغة في كتب العربيّة*، عبده الراجحيّ، ص٥١–٥٢؛ *وابن جنّـيّ النحويّ*، صالح السامرائيّ، ص ١٤٢–١٥٢.

[١٥٢] *أصول النحو*، سعيد الأفغانيّ، ص ٨٣.

[١٥٣] *النحو العربيّ*، مازن المبارك، ص ٨٥.

في أوّله، وقد تُعلّق عليه به وسنقول في معناه".[١٥٤] ويقارن في مكانٍ آخر بين علل النحويّين وعلل الفقهاء والمتكلّمين ليجد أنّ علل النحويّين أقرب إلى علل المتكلّمين، لأنّها تُدرك في كلّ الأحيان وتُحال إلى الحسّ والطبائع والنفوس، كذا تظهر فيها وجوه الحكمة بخلاف علل المتفقّهين القائمة على الأمارات الدالّة على الأحكام، وهي غالبًا ممّا لا يظهر فيه وجوه الحكمة.[١٥٥] كذلك فعل ابن الأنباريّ (تـ٥٧٧هـ) حين سار على نهج ابن جنّي في التأصيل النحويّ؛ غير أنّه توسّع في ربطه لعلم اللغة بالعلوم الفقهيّة.[١٥٦] ثمّ يضيف في موقع آخر: "وألحقنا بالعلوم الثمانية[١٥٧] عِلْمَين وضعناهما: علم الجدل في النحو، وعلم أصول النحو، فيُعرف به القياس وتركيبه وأقسامه؛ من قياس العلّة، وقياس الشبه، وقياس الطرد إلى غير ذلك، على حدّ أصول الفقه؛ فإنّ بينهما من المناسبة ما لا خفاء به؛ لأنّ النحو معقول من منقول، كما أنّ الفقه معقول من منقول".[١٥٨]

أما السيوطيّ (تـ ٩١١هـ) في الاقتراح فأخذ لُباب هذا العلم من الخصائص، وخلاصة مباحث العلّة من اللُّمع؛ وهذّب مادّته ورتّبها وجعل الرابط بين الفقه والنحو في قوله: "وهو أصول النحو الذي هو بالنسبة إلى

---

[١٥٤] *الخصائص*، ابن جنّي، ٢/١. ويضيف في موضع آخر: " فإن هذا الكتاب ليس مبنيًّا على حديث وجوه الإعراب؛ وإنما هو مقام القول على أوائل أصول هذا الكلام، وكيف بُدئ وإلام نحى. وهو كتاب يتساهم ذوو النظر: من المتكلّمين، والفقهاء، والمتفلسفين، والنحاة، والكتّاب، والمتأدّبين التأمّل له، والبحث عن مستودعه" (٦٨/١).

[١٥٥] *الخصائص*، ابن جنّي، ١٤٤/١.

[١٥٦] *الاقتراح في أصول النحو*، السيوطيّ، ص ٤.

[١٥٧] أي علوم الأدب وهي: اللغة والنحو والتصريف والعروض والقوافي وصنعة الشعر وأخبار العرب وأنسابهم (*الاقتراح في أصول النحو*، السيوطيّ، ص ٨).

[١٥٨] *نزهة الألبّاء*، الأنباريّ، ص ٨٩.

النحو كأصول الفقه بالنسبة للفقه".[١٥٩] ونشعر بأثر الفقه والمنطق[١٦٠] حين يُطبّق ابن جنّيّ قاعدة الاستحسان من أصول الفقه الحنفيّ على الأبنية الصرفيّة، وحين يتحدّث عن حمل الفرع على الأصل والعكس، والحمل على الظاهر، وغلبة الفروع على الأصول، والاحتجاج باللغات رغم اختلافها على نحوِ ما يختلف الفقهاء، وتركيب المذاهب، والحديث عن السبب والمسبّب، والمستحيل، واستخدام مصطلحات فقهيّة كالنسخ والتعدية والتعليق واستعمال المصطلحات الخاصّة بالعلّة كالقياس والابتداء والكناية والشرط والإجماع والاستنباط وقياس الطرد والشبه والعلّة والقياس الجليّ والخفيّ وغيرها. ولا بدّ من التنبّه على أنّ ابن جنّيّ، وإن أفاد من مناهج الفقهاء والمناطقة في درسه اللغويّ واستمدّ مطلحاته من مصطلحات الفقهاء، إلّا أنّه أراد بها مفاهيم لغويّة تختلف في ماهيّتها عن المفاهيم الفقهيّة والكلاميّة.

وإلى ذلك، فالاتّجاهات النحويّة في عصر ابن جنّيّ توزّعت بين اتّجاهين قديمين، أحدهما بصريّ والآخر كوفيّ، ثمّ نشأ مذهبٌ من خلط المذهَبين والتخيّر منهما؛ وهو مذهب البغداديّين.[١٦١] واختلفت الأقوال والآراء حول مذهب ابن جنّيّ النحويّ؛ فمنهم من قال إنّه كان يتخيّر بين المذهَبين البصريّ والكوفيّ وما تولّد عنهما من المذهب البغداديّ.[١٦٢] ومنهم من قال إنّه تبع مذهب شيخه الفارسيّ، أي المذهب البصريّ. لكنّه لم

---

[١٥٩] *الاقتراح في أصول النحو*، السيوطيّ، ص ٤.

[١٦٠] انظر: *القرائن بين اللغويّين والأصوليّين*، نادية النجّار، الباب الثالث، ص ٤٣٧-٤٦٢.

[١٦١] *الخصائص*، ابن جنّيّ، المقدّمة ص ٤٦-٤٧.

[١٦٢] *همع الهوامع*، السيوطيّ، ٩٩/١.

ينزع إلى البصريّين عن حميّة وعصبيّة بل عن درايةٍ وطول تبصّر. والدليل على ذلك أنّه، في كثير من الأحيان، يلزمُ جانب الكوفيّين وأوائل البغداديّين حين يجد السداد في جانبهم.[١٦٣]

والواقع أنّنا، رغم اختلاف الأقوال في مذهب ابن جنّيّ النحويّ،[١٦٤] لا نشكّ في أنّ الرجل قد تفرّد بآرائه النحويّة واستقلّ باجتهاداتٍ لغويّة ونحويّة عن المذهبَين البصريّ والكوفيّ وعن شيخه الفارسيّ.[١٦٥] ومن البَدهيّ أن نستنتج من كلّ ما سبق، أنّ ابن جنّيّ كان يؤسّس لمنهج مستقل في البحث اللغويّ يختلف عن سابقيه من حيث الهدف ووسائل التحليل، وإن شاركهم في المادّة اللغويّة ومجموع الشواهد التي جُمعت في القرنين الثاني والثالث الهجريّين؛ إذ يستمدّ قواعده وتأصيله معتمدًا على القراءات القرآنيّة وكلام الأعراب من شعر ونثر، وقد يستشهد بالحديث النبويّ للاستئناس، لا لاستنباط الأحكام.[١٦٦]

ولعلّ من أكثر ما وُصف به ابن جنّيّ، في معرض الحديث عن عقليّته ومنهجه، سرعة البديهة في لمح الإشارات وتلمّسها ودراستها دراسةً متعمّقة، لأنّه يبني من تلك الإشارات بابًا واسعًا،[١٦٧] وينقل الاصطلاحات المجرّدة إلى اصطلاحاتٍ "عينيّة" من خلال تلمّس الظواهر الجزئيّة، مرئيّة كانت أم مسموعة،

---

[١٦٣] *المدارس النحويّة*، شوقي ضيف، ص ٢٧٣. وانظر أيضًا: *الخصائص*، ابن جنّيّ، المقدّمة ص ٤٦-٤٧.

[١٦٤] للتوسّع انظر : *الخصائص*، ابن جنّيّ، ١٣٧/١؛ *المدارس النحويّة*، شوقي ضيف، ص ٢٦٨-٢٦٩ و ٢٧٢-٢٧٣.

[١٦٥] للتوسّع انظر : *الخصائص*، ابن جنّيّ، ١٠٩/١ (مخالفة الجمهور في الأسباب المانعة للصرف)؛ و ١٩٢/١ (مسألة جُحر ضبّ خرب).

[١٦٦] انظر: *الخصائص*، ابن جنّيّ، ٣٣/١؛ *والمدارس النحويّة*، شوقي ضيف، ص ٢٧٦؛ *وابن جنّـيّ النحويّ*، صالح السامرائي، ص ١٢٤ وما بعدها.

[١٦٧] *ابن جنّـيّ النحويّ*، صالح السامرائي، ص ٢٦٥.

وتصوير المعاني العامّة بأمثلة محسوسة.[١٦٨] وهذا يقع في صلب دراستنا، إذ تنبّه ابن جنّيّ إلى أنّ اللغة صادرة عن حكمة وإحكام، فجعل يتلمّس الظواهر اللغويّة التي ظهرت عند الأعراب ليبني عليها مفهومًا متكاملًا تنتظم فيه مختلف ظواهر اللغة. ومن ذلك ما تفرّد به في الاشتقاق الأكبر والتضمين؛ ذلك أن الخليل كان قد سبقه في بناء العين على التقاليب الستّة للجذر الثلاثيّ، ثم توصّل ابن جنّيّ إلى إمكانيّة جمع هذه الاشتقاقات والتقاليب تحت معنًى واحد.[١٦٩] كما قد توصّل إلى إمكانيّة تضمين معنى لفظٍ ما لآخر، فإن كان مصدرًا أو فعلًا أُعطي حكمه وعُدِّيَ بما يُعدّى إليه.[١٧٠]

ولا عَجب أنّ حبّ ابن جنّيّ للعربيّة وولعه بها على النحو الذي أظهره في الخصائص، وفي سائر مؤلّفاته، قد يفسّر ميله إلى الإطناب والتفسير والبحث عن العلل، وعنايته بالتقسيم وضرب الأمثلة والأدلّة، على النحو الذي يسوقه في الخصائص. ولعلّ مراده في ذلك توكيد المعنى في نفس القارئ وإقناعه بكلّ ما يملك من دلائل وحجج.

ويرى الراجحيّ أن ابن جنّيّ قد استخدم في منهجه الحكمة الفلسفيّة والفكر الثاقب المتغلغل في ثنايا الواقع اللغويّ الذي يبحثه.[١٧١] وهذا المنهج ينمّ عمّا هو أبعد من الولع والشغف باللغة؛ إنه بحثٌ عن سرّ العربيّة، وإيمانٌ بعظيم هذه اللغة وشرف منزلتها في تركيبة العقل العربيّ، الذي لم ينطق إلّا عن حكمة وإحكام.

---

[١٦٨] *الاصطلاحات الفلسفيّة*، جميل صليبا، مجلة مجمع اللغة العربيّة، المجلد ٤٤، ٤/٧٠٠-٧٣٩.

[١٦٩] انظر: *الخصائص*، ابن جنّيّ، ٢/١٣٣ وما بعدها؛ *والمدارس النحويّة*، شوقي ضيف، ص ٢٧٥.

[١٧٠] انظر: *الخصائص*، ابن جنّيّ، ٢/٣١١ و٣٨٩؛ *والمدارس النحويّة*، شوقي ضيف، ص ٢٧٥.

[١٧١] *فقه اللغة في الكتب العربيّة*، عبده الراجحيّ، ص ٥٣.

ولا يكاد يُعقد باب من أبواب الخصائص إلّا والحكمة متغلغلة في ثناياه؛ ذلك أنّ ابن جنّيّ يستحضر الحكمة في ذهنه، وهو يشير إليها في الظواهر اللغويّة تارةً، ويصرّح بها بمصطلحاتها ومعانيها تارةً أُخرى، معتمدًا أسلوبًا تدريجيًّا للإقناع. فإن أخذنا "باب في أنّ العرب أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه إليها وحملناه عليها"[١٧٢] مثالًا على منهجيّته، نلحظ أن المصنَّف يبدأ بالطرح أوّلًا ثمّ يتوسّل الدلائل للإقناع ثانيًا. أي، بمعنى أدقّ، يفتتح ابن جنّيّ هذا الفصل مؤكّدًا أنّ العرب كانت تحمل في نفسها وسجيّتها هذه العلل، وأنّ النُّحاة قد اجتهدوا واستنبطوا العلل الكامنة في نفوسهم وإن لم ينطقوا بها. فالعرب متّفقون على أُسس مشتركة —رغم "كثرتهم وسعة بلادهم وطول عهد زمان هذه اللغة"[١٧٣]— لا ينطقون إلّا بمقتضاها. لأنّ رفع الفاعل ونصب المفعول وجرّ المجرور لم يقع مصادفةً؛ وقد أرادت العرب الجر بحروفه والنصب بحروفه وغير ذلك من حديث التثنية والجمع والإضافة والنسب والتحقير.[١٧٤] وإن حدث خلافٌ فلا يقع "إلا وهُمْ له مريدون وبسياقه على أوضاعهم فيه معنيّون".[١٧٥]

ثمّ بعد عرضه للطرح، أي الفكرة المركزيّة التي يتمحور حولها الباب، يورد وسائل الإقناع من خلال محاججةٍ افتراضيّة لخصمٍ يجادله متّبعًا أسلوب الفنقلة كقوله: "فإن قلت ... قلنا/قيل". ويمكننا أن نستخرج الأدلّة الستّة التالية المتضمَّنة في هذا الباب:

---

[١٧٢] *الخصائص*، ابن جنّيّ، ٢٣٨/١.

[١٧٣] نفسه، ٢٣٩/١.

[١٧٤] نفسه.

[١٧٥] نفسه.

الدليل الأوّل:[١٧٦] افترض ابن جنّيّ رأيًا معارضًا، وهو أن العرب طُبعت على لغتها فتناقلتها من غير نظرٍ في علّة كلامها. ثمّ يجيب عن هذا الاعتراض مؤكّدًا أن العرب قد تيقّظت وتنبّهت إلى وجه الحكمة في لغتها، وأنّ الله قد آتاهم هذه اللغة الشريفة ونفوسهم قابلة لها، مُحِسّة لقوّة الصنعة فيها. ويدعم كلامه بأبياتٍ شعريّة لأبي المهديّة تُظهر تباهي الشاعر باللغة العربية دونًا عن الفارسيّة.

الدليل الثاني:[١٧٧] أورد ابن جنّيّ روايةً نقلها عن المتنبّي (تـ ٣٥٤هـ) —وكانت تجمعه به علاقة متينة، إذ يُشير إليه بـ"شاعرنا"[١٧٨]— دليلًا على أنّ العلّة كانت قابعةً في نفس العربيّ. وجاءت الرواية بأنّ أحد الأعراب، ولعلّه ليس أعرابيًّا خالصًا، لحن باستعماله لفظ "يحير" فهمس إليه آخر مصحّحًا له بـ "يحار".

وموطن الشاهد في هذه الرواية أن العلّة حاضرة وظهرت حين تطلّب الموقف ذلك فصحّح اللحن دون أن يعطيه علّة القلب الصرفيّة. وجاء النحاة بعد ذلك ليستخرجوا القاعدة الصرفيّة من كلام الأعرابيّ.

الدليل الثالث:[١٧٩] أورد أبياتًا لعمّار الكلبيّ (تـ ؟) يردُّ فيها على مَن عاب عليه أبياتًا من شعره. وهو في هذه الأبيات يستنكر ما جاء به المستعربون ويفخرُ بعربيّته التي طُبع عليها فيقول:

كم بين قومٍ قد احتالوا لمنطِقِهم وبين قومٍ على إعرابهم طُبعوا

---

[١٧٦] نفسه، ١/٢٣٩-٢٤٠.

[١٧٧] نفسه، ١/٢٤٠.

[١٧٨] انظر: نفسه، ١/٢٥، الهامش (١).

[١٧٩] نفسه، ١/٢٤٠-٢٤١.

ما كلُّ قولي مشروحًا لكم فخذوا ما تعرفون وما لم تعرفوا فدَعوا

الدليل الرابع:[١٨٠] أورد بيتًا للنابغة الذبياني(تـ ٦٠٥م) فيه إقواء (وبذاك خبّرنا الغرابُ الأسودُ)، وجاء في الرواية أنّه غيَّره إلى قوله (وبذاك تَنْعابُ الغرابِ الأسودِ) بعد أن عيب عليه. وفي هذا الدليل أشار ابن جنّيّ إلى اختلاف العرب في مسألة الإقواء، إذ يرى أبو الحسن الأخفش أن العرب لا تستنكر الإقواء بدليل أن كلّ بيت منها شِعْرٌ قائم بنفسه. وبالتالي يتّضح لنا أنّ العلل والأغراض قائمةٌ في كلام العرب وشعرها.

الدليل الخامس:[١٨١] ذكر أبياتًا لأبي عبد الله الشجريّ (تـ ٥٤٢هـ)، وأورد قصّته معه كيف علّل ابن الشجريّ لقِصر الحركة في (حاجبه) دون أن يُدلي بقاعدةٍ. والشاهد هنا أيضًا في أنّ العلّة كامنة في نفوس العرب.

الدليل السادس:[١٨٢] ذكر قصّةً جرت بينه وبين ابن الشجريّ، وخلاصة الرواية أن ابن جنّي سأله عن جمع "دكّان" فأجاب بـ "دكاكين"، و"سِرحان" فأجاب بـ "سراحين"... ثمّ سأله عن "عثمان" فقال: "عثمانون"؛ فقال له ابن جنّيّ: "هلّا قلتَ أيضًا عثامين؟"، فاستنكر الشجريُّ عليه وقال: "أيش عثامين! أرأيت إنسانا يتكلّم بما ليس من لغته؟ والله لا أقولها أبدًا". وموطن الشاهد هنا أن الشجريّ أنكر عليه استعمال "عثامين" دون أن يعلّل له، فلم يقل له (أنَّ غير العاقل يُجمع جمع تكسير

---

[١٨٠] نفسه، ٢٤١/١.

[١٨١] نفسه، ٢٤١/١-٢٤٣.

[١٨٢] نفسه، ٢٤٣/١.

والعاقل يُجمع جمع مذكرٍ سالم)، بل إنَّ ابن جنّيّ هو مَن استنبط هذه العلّة الكامنة في نفس الشجريّ.

وبعد أن ذكر ابن جنّيّ الدلائل هذه التي استخلصناها، قال: "والمرويُّ عنهم فى شغفهم بلغتهم وتعظيمهم لها واعتقادهم أجمل الجميل فيها أكثر من أن يورد أو جزء من أجزاء كثيرة منه".[١٨٣] ونستنتج من قوله هذا أمرين اثنتين:

الأول: أنّ ابن جنّيّ يسعى إلى أن ينسب إلى العرب شغفًا وتعظيمًا للغتهم، حتى وكأنّ نفوسهم قد جُبلت على حبّ وتقبّل هذه اللغة. وهذه الظاهرة لها نظائر في مواضع مختلفة من الكتاب، كما سيرد في الفصل التالي.

الثاني: أن ابن جنّيّ مُدرك لاتّساع الشواهد وكثرتها، فلم يُطل التمثيل والتدليل خشية الحشو والهذر بل تخيَّر أفضل أفكاره وعرضها.

وخلاصة القول أن ابن جنّيّ يتوسّل أسلوبًا تدريجيًّا للإقناع، يحاول فيه قدر الإمكان أن يبتعد عن الحشو متخيّرًا أفضل ما عنده فيضرب المثال الأنسب لكلّ مقام. كذا فإن مقاربته للمظاهر اللغوية وبحثه عن خصائصها مقترنان بالكشف عن إعجابه بالعربيّة وقدرها ومكانتها ونسبة الحكمة إلى أصحابها.

---

[١٨٣] نفسه، ٢٤٣/١.

الفصل الرابع

الحكمة في كتاب الخصائص

بحثنا في الفصلين السابقين مفهوم الحكمة في التراث اللغويّ والنحويّ، وتتبّعنا تطوّره عند اللغويّين والنحويّين العرب، كما بحثنا منهج ابن جنّيّ في الخصائص وتوصّلنا إلى أنّه يقارب الظواهر اللغويّة معلّلًا ومسوّغًا لها،[١٨٤] وموضحًا كيف أنّها لم تنشأ مصادفةً أو اعتباطًا وإنّما عن حكمةٍ وتنبُّه، بأسلوبٍ تدريجيٍّ يكشف عن إعجابه باللغة وعظيم شغفه بها ووعيه بقدرها وحكمة أصحابها. ونخصّص هذا الباب للبحث في الظواهر الدّالّة على الحكمة في كتاب "الخصائص"؛ ويشمل ذلك تحديدَ نظرة ابن جنّيّ للغة وكيفيّة مقاربته لحكمتها وبيان وجوه تلك الحكمة في مواضع كثيرة من الكتاب. كذلك سوف نعمد —في كلّ فصلٍ من فصول "الخصائص"— إلى النظر في تجلّيات الحكمة وانعكاساتها في القياس والسماع والأصوات والألفاظ والمعاني وغيرها من الظواهر اللغويّة العامّة إظهارًا لِما كان عُني به ابن جنّيّ من الإشارة إلى أسرار العربيّة ووجوه الحكمة فيها في كلّ فصلٍ من فصول كتابه.

اهتمّ النُّحاة الأوائل —كما أشرنا في الباب الأوّل— إلى تعليل الظواهر النحويّة ووضع المبادئ الأساسيّة لتشكيل النظريّة النحويّة، التي اكتملت عناصرها مع سيبويه، مثل السماع والقياس والعلّة والتقدير؛

---

[١٨٤] مثال ذلك تسويغ الشاذ؛ إذ يرى ابن جنّيّ أنّ ما خرج من الصيغ عن القياس إنّما "خرج عن الصحّة منبهةً على أصل بابه" (الخصائص ١٤٨/١). وتسويغ ابن جنّيّ هذا جاء لسببين؛ أوّلهما عدم ردّ الصيغ الشاذّة وإدراجها ضمن الصيغ المستعملة، وثانيهما إسقاط الالتزامات وتخصيص العلل (الخصائص ١٤٩/١). ولأمثلة أُخرى عن التعليل بالمنبهة على الأصل انظر: الخصائص ٤٩/١ و٧٨/١ و٨٧/١ و١٤٦/١–١٤٨ و١٥٧/١ و١٦٠/١ و١٦٢/١ و٢٨٥/١ و٢٦٣/١ و١٣٥/٢ و٥٤/٣.

وهي مبادئ يُكمِّل بعضها بعضًا. ذلك أنّه لا بُدّ في عمليّة القياس من عناصر أربعة، هي: الأصل والفرع والعلّة والحُكم.[١٨٥] والمراد بالفرع والأصل المقيس والمَقيس عليه ، والمراد بالعلّة —التي تشغل حيّزًا كبيرًا من عمليّة القياس— التسويغات التي تتعلّق بمساعي النُّحاة —وعلى رأسهم سيبويه — للكشف عن الحكمة وراء الظواهر اللغويّة من خلال البحث عن الأسباب والعلل، وبالتالي رؤيتها في سياقات أوسع، أي القياس عليها. أمّا الحُكم فهو القاعدة النحويّة التي استنبطها النُحاة من كلام العرب حين اختارت وجهًا معيّنًا من التعبير والصياغة. وإذا نظرنا نظرةً أوسع إلى النظام النحويّ الذي وضعه سيبويه نجدُ أن التقدير يكشفُ عن التجانس الكامن في الظواهر اللغويّة التي لم تنشأ عشوائيًّا أو اعتباطيًّا.[١٨٦]

وإذا انطلقنا من نظرية الخليل[١٨٧] التي تنسبُ الحكمة إلى الباني، وتحدّد مهَمّة النُّحاة في البحث عن الحكمة في الاستعمال اللغويّ، بمعنى آخر استخدام التعليل للإبانة عن الحكمة الكامنة في كلّ ظاهرة لغويّة، نقعُ على تفسيرٍ منطقيّ لاهتمام سيبويه في اكتشاف نيّة المتكلّم ومن ثَمّ تبرير الاستخدام اللغويّ والسعي إلى وضع الأسباب التي تفسِّر هذا الاستخدام.[١٨٨] وهذه الجهود، التي بذلها سيبويه في الكتاب، جاءت لإبراز تماسك الظواهر اللغويّة واتّساقها ووضع معايير النحو العربيّ التي صارت نموذجًا احتذى به مَن جاء بعده من النُّحاة.[١٨٩]

---

[١٨٥] *لُمع الأدلّة*، ابن الأنباريّ، ص ٩٣.

[١٨٦] R. Baalbaki, *The Legacy of the Kitāb,* p 81.

[١٨٧] انظر: *الإيضاح في علل النحو*، الزجّاجيّ، ص ٦٥-٦٦.

[١٨٨] انظر: R. Baalbaki, *The Legacy of the Kitāb,* p 67; 82.

[١٨٩] نفسه، ص ١٥٣.

ونلاحظ ممّا سبق، أنّ سيبويه استخدم مصطلح "العلّة" في تعليل الظواهر اللغويّة وتبريرها، ولم يستخدم مصطلح "الحكمة" —كما فعل النُّحاة اللّاحقون— للإشارة إلى العوامل العقلانيّة التي تكمُن وراء الاستخدام. ورغم أنّ المصطلح نفسه لا يظهر في "الكتاب" لكنّه مضمَّن تضمينًا في مختلف الحجج والعلل التي يسوقها سيبويه لتعليل الظواهر اللغويّة حيث أمكن. وقد كان ابن جنّيّ من أبرز العلماء، بعد سيبويه، الذين حرصوا على نسبة الحكمة إلى العرب، من خلال الإضاءة على الأُسس الفكريّة القائمة في ذهن العربي في استعمالاته اللغويّة.[١٩٠] وهو يؤكّد على هذه الحكمة في مواضع متعدّدة وفي سياقات مختلفة، حتى لا يكاد يخلو فصل من الإشارات التي تدلّ على حكمة العربيّ أو على حكمة العربيّة، كما سنبيّن في موضع لاحق من هذا الفصل.

نستنتج إذًا أن سيبويه يُظهر، من خلال تمسّكه بالأدوات النحويّة الأساسيّة في تحليل الكلام وتركيبه، سواءٌ على الصعيد اللغويّ أو النحويّ أو الصرفيّ، تماسُك نظامه النحويّ وقدرته على شرح الاستخدام اللغويّ، وبالتالي الكشف عن الحكمة الكامنة وراء هذه الاستخدامات. إلّا أنّ النُّحاة، بعد سيبويه، صبّوا اهتمامهم على الظواهر الشكليّة دون أن يُبرزوا أهميّة المعنى في التحليل اللغويّ. وقد ظهرت محاولات لبعض العلماء لإعادة دور المعنى في التحليل اللغويّ والنحويّ،[١٩١] وعلى رأسهم الجاحظ (تـ ٢٥٥) وابن جنّيّ (تـ ٣٩٢)، والسُّهيليّ (تـ ٥٨١).

---

[١٩٠] نفسه، ص ٦٧ و٢٦٤.

[١٩١] نفسه، ص ٢٧٣.

ألف. مقاربة ابن جنّيّ للحكمة

يلتزم ابن جنّيّ في الخصائص مبدأ الحكمة في تحليل الخطاب اللغويّ عند العرب؛ ولذا سوف نتطرّق إلى منهجيّته في مقاربة الحكمة من منظوره الخاصّ للُّغة.

لكن قبل الدخول في التفاصيل المتعلّقة بمنظور ابن جنّيّ اللغويّ، لا بُدّ من الإشارة إلى مَن له تُنسب هذه الحكمة، تسهيلًا على القارئ في فهم التصوّر العامّ للحكمة في ذهنيّة المصنّف.

١. حكمة "الواضع"

الحكمة —في الأصل— فكرةٌ مجرَّدة، جاء ابن جنّيّ ليترجمها في الظواهر اللغويّة وحوّلها من فكرةٍ مجرّدة إلى فكرة ملموسة، واعتمدها أساسًا في منهجيّته التحليليّة للمادة اللغويّة. ونهج المصنّف نهجًا في التسلسل المنطقيّ جاء على الشكل التالي: العرب قومٌ حكماء نطقوا اللغة بالسليقة والفطرة وما وضعوا شيئًا عن عبثٍ، بل عرفوا مواضع الكلام فأتقنوا التركيب دون تكلُّف —ووضع الشيء في موضعه ضربٌ من ضروب الحكمة— وهم أيضًا قد وُهبوا هذه اللغة نعمةً من الله عزَّ وجلّ. ثمّ جاء النُّحاة ليتخيَّروا العلّة التي أرادتها العرب في كلامها، وبَنوا نظامهم النحويّ استنادًا على ما وقعوا عليه في كلام الأعراب. وإن ثبتت الحكمة للأعراب الأقحاح ثبتت الحكمة في كلامهم كذلك، لأنّ كلامهم —من حيث المنطق— انعكاسٌ وتعبيرٌ عمّا يحملون من حكمة في طبائعهم.

غير أننا إذا نظرنا نظرةً أعمق إلى منهجيّة ابن جنّيّ التي قارب الحكمة بها، نلاحظ أنه نسب الحكمة إلى مَن يسمّيه "الواضع"، واستعمل الجذر (و ض ع) —على اختلاف اشتقاقاته— في غير موضع في

الكتاب، كاستعماله الفعل "تواضع"، أو "عند التواضع" و"مواضعة" وغيرها.[١٩٢] وقد جاء مصطلح "الواضع" في استعمالين اثنين في الخصائص، إذ يقصد ابن جنّيّ تارةً بالواضع الخالق سبحانه، وتارةً أُخرى يقصد به العرب باعتبارهم أهل اللغة وأهل الصنعة؛ وقد ظهر القصد من السياق. غير أنّ مِن الباحثين مَن ذهب إلى أن ابن جنّيّ مضطربٌ في مسألة نسبة اللغة إلى الواضع، وردّوا هذا الاضطراب إلى موقفه من أصل اللغة؛[١٩٣] ولسنا نرى مسوغًا لذلك استنادًا إلى الدلائل التالية:

١-١. معنى "الوضع" في المعجم

الوضعُ لغةً "جعلُ اللفظ بإزاء المعنى"، وفي الاصطلاح: "تخصيص شيءٍ بشيء متى أُطلق... والمرادُ بالإطلاق: استعمال اللفظ وإرادةُ المعنى"،[١٩٤] وقد نقل السيوطي عن التاج السُّبكي قوله: "وهذا تعريف سديد؛ فإنّك إذا أطلقت قولك "قام زيدٌ" فُهِمَ منه صُدور القيام منه".[١٩٥] أمّا في الاصطلاح النحويّ فالوضعُ: "تخصيصُ شيء بآخر ليُفهم الثاني عند إطلاق الأوّل أو تخيّله".[١٩٦] وعند أهل العربيّة الوضعُ هو "عبارة عن تعيين الشيء للدلالة على شيءٍ"[١٩٧] أي تعيين اللفظ للدلالة على المعنى بوجود قرينة أو بعدمها.[١٩٨] وتواضع

---

[١٩٢] للأمثلة انظر: معنى "الوضع" في المعجم.

[١٩٣] انظر : *مفهوم الحكمة عند اللغويّين والنحويّين العرب*، محمّد رضا أردهالي، رسالة ماجستير (الجامعة الأميركيّة في بيروت)، ص ٨١.

[١٩٤] انظر: معجم *التعريفات*، الجرجانيّ، مادّة (وضع).

[١٩٥] المزهر، السيوطيّ، ٣٨/١.

[١٩٦] انظر: *مقاليد العلوم*، السيوطيّ، مادّة (وضع).

[١٩٧] *كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم*، محمّد عليّ التهانويّ، ص ١٧٩٥.

[١٩٨] للتوسّع، انظر: نفسه، ص ١٧٩٤-١٨٠٠.

القومُ على الشيء: اتّفقوا عليه، والمواضعةُ ما تعارف الناسُ عليه.[١٩٩] وجاء في معجم الأفعال المتداولة: "وضَعَه: وضع الله الأمور بموازين (جعلها)"،[٢٠٠] ومن معاني جعل: عمل وهيّأ وخلق ومنه قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].[٢٠١] وقيل: "بارك الله الشيء، بارك فيه وعليه: وضع فيه البركة".[٢٠٢]

نستخلص إذًا ممّا سبق أنّ للوضع استعمالات متعدّدة، لا سيّما في سياق وضع اللغة. ولا غَرو أن يستخدم ابن جنّيّ الفعلَ "وضع"، مع مشتقاته، في استعمالاته وسياقاته المختلفة كما سنبيّن في الفقرة التالية.

١-٢. سياق "الوضع" في النص

جاء مصطلح "الواضع" ضمن سياقات متعدّدة دلّت على أنّ الخالق سبحانه قد هدى العرب إلى لغتهم، وأراهم وجه الحكمة في هذا "العلم الكريم"؛ ومن ذلك قوله:

- "والقوم الذين لا نشكّ في أن الله —سبحانه وتقدَّست أسماؤه— قد هداهم لهذا العلم الكريم، وأراهم وجه الحكمة في الترجيب له والتعظيم، وجعله ببركاتهم، وعلى أيدي طاعاتهم، خادمًا للكتاب المُنزَّل، وكلام نبيِّه المُرسل، وعونًا على فهمهما، ومعرفة ما أُمِرَ به، أو نُهِيَ عنه الثَّقَلان منهما،

---

[١٩٩] انظر: *اللسان*، ابن منظور، مادّة (وضع).

[٢٠٠] معجم *الأفعال المتداولة*، محمّد الحيدريّ، ص ٨٣٠.

[٢٠١] *اللسان*، ابن منظور، مادّة (جعل).

[٢٠٢] انظر: *المحكم*، ابن سيدة، ٢٣/٧.

المخصّص، ابن سيدة، ٤٤٨/٣.

إلّا بعد أن يناهضه إتقانًا، ويثابته عِرفانًا، ولا يُخلِد إلى سانح خاطره، ولا إلى نَزْوةٍ من نزوات تفكُّره".[٢٠٣]

- "لأنَّ الله سبحانه إنّما هداهم لذلك ووقّفَهم عليه؛ لأنّ في طباعهم قبولًا له، وانطِواء على صحّة الوضع فيه، لأنهم مع ما قدّمناه من ذكر كونهم عليه في أوّل الكتاب من لُطْف الحسِّ وصفائِه، ونصاعة جوهر الفكر ونقائه، لم يُؤتوا هذه اللغة الشريفة، المنقادة الكريمة، إلّا ونفوسهم قابلة لها، مُحِسَّة لقوّة الصنعة فيها، معترفة بقدر النِّعمة عليهم بما وُهِب لهم منها".[٢٠٤]
- "فأعجبْ للطف صنع الباري سبحانه في أن طَبَعَ الناس على هذا، وأمكنهم من ترتيبه وتنزيله، وهداهم للتواضع عليه وتقريره".[٢٠٥]
- "ونحن نُتبِع هذا الباب بابًا أغرب منه، وأدلّ على حكمة القديم سبحانه وتقدَّسَت أسماؤه، فتأمَّله تحظ به بعون الله تعالى".[٢٠٦]
- " ليُرى منه غَور هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة، ويعجب من وسيع مذاهبها وبديع ما أَمِدَّ به واضعها ومبتدئها".[٢٠٧]
- " وأنّ واضعها عُنِيَ بها وأحسن جِوارها وأُمِدَّ بالإصابة والأصالة فيها".[٢٠٨]

---

[٢٠٣] *الخصائص*، ابن جنّي، ١/١٩١.

[٢٠٤] نفسه، ١/٢٤٠.

[٢٠٥] نفسه، ٢/١١٩.

[٢٠٦] نفسه، ٢/١٥٢.

[٢٠٧] نفسه، ١/١٨.

[٢٠٨] نفسه، ١/٣١٣.

انطلاقًا من هذه الأمثلة يتّضح لنا أنّ الله عزَّ وجلّ قد جعل في طبائع العرب ونفوسهم قبولًا للعربيّة، وهيّأ لهم الأسباب والأحوال التي تُعينهم على فهم اللغة واستنباط العلوم المتعلّقة بها، فوضعوا القواعد والأُسس التي تساعدهم على فهم معاني القرآن الكريم وكلام الرسول، من ذلك مثلًا تخصيص ابنُ جنّيّ بابًا لِما "يؤمّنه علم العربيّة من الاعتقادات الدينيّة".

إذًا، اتّفق الناس ووضعوا الكلام دليلًا على أغراضهم ومقاصدهم وحاجاتهم،[٢٠٩] وجعلوا بإزاء كلّ معنى لفظًا يدلّ عليه. إلّا أنّ الحاجة قد دعتهم إلى وضع ألفاظ متعدّدة للمعنى الواحد بُغية التأكيد والتقرير، فلو كُرّر اللفظ نفسه "لسَمُج ومُجَّ" إذ قيل إنّ الطباع "مجبولةٌ على مُعاداة المُعادات"؛ فوضعوا ألفاظًا مشتركة للتعبير عن المعنى الواحد.[٢١٠] وهذا تأكيدٌ على ما رآه ابن جنّيّ من لُطف الحسّ ونقاء الفكر عند العرب، فهم قد جبلوا في سليقتهم على ردّ المرذول وتجنّب التكرار وميلهم إلى الخفّة...

---

[٢٠٩] ومثال ذلك ما ورد في كتاب الخصائص: "اعلم أن واضع اللغة لمّا أراد صوغها وترتيب أحوالها، هجم بفكره على جميعها ورأى بعين تصوره وجوه جملها وتفاصيلها" (٦٥/١)؛ "فهذا ونحوه يدلّك على قوّة تداخل هذه اللغة وتلاحُمها واتّصال أجزائها وتلاحُقها وتناسب أوضاعها، وأنّها لم تُقتَعث اقتعاثًا، ولا هِيلت هَيْلًا، وأنّ واضعها عُنِيَ بها وأحسن جِوارها وأُمِدَّ بالإصابة والأصالة فيها." (٣١٣/١)؛ "فأمّا الزمان فيجوز أن يكونوا عند التواضع قدّموا الاسم قبل الفعل" (٣٢/٢)؛ "وهذا يدلّك على أنّهم قد يستعملون من الكلام ما غيره آثر في نفوسهم منه؛ سعة في التفسّح، وإرخاء للتنفّس، وشُحّا على ما جَشِموه فتواضعوه، أن يتكارهوه فيلغوه ويطرحوه" (٣٢٢/٣)؛ "اجتماعهما من حيث وضع كل واحد منهما في غير الموضع الذي بدئ له" (٣٢٢/٣)؛ "ففي هذا أيضًا إخراجُ الواو عن أوّل ما وُضعت له في الأصل" (٣٢٢/٣)؛ وغيرها من الأمثلة التي جاءت عن الوضع والمواضعة والتواضع...

[٢١٠] *المزهر*، السيوطيّ، ص ٣٥-٣٨.

إذًا يتّضح لنا من خلال المعنى اللغويّ للجذر (وضع) ومن السياق الذي ورد فيه في نصّ الخصائص، مُراد ابن جنّيّ في نسبة الحكمة إلى الواضع؛ إذ اختلف معنى "الواضع" باختلاف الاستعمال اللغويّ. فالمصنّف صريحٌ في نسبة الحكمة إلى الخالق سبحانه الذي أرشد العرب وهداهم إلى فهم لغتهم ومعرفة عظيم شرفها، وهذا السياق الأوّل للفظة "الواضع". أمّا السياق الثاني فالمَعنيُّ بالواضع فيه هم العرب أنفسهم أصحاب اللغة الذين تواضعوا واستنبطوا العلوم العربيّة، وأدركوا خفاياها ومزاياها معتمدين على سليقتهم وطباعهم المجبولة على اللطافة والنقاوة.

وبالعودة إلى المنظور اللغويّ —الذي منه سننطلق في رؤيتنا لمقاربة ابن جنّيّ للحكمة— يظهر لنا أنّه يرى اللغة من منظورين أساسيين وهما: الاهتمام بالمعنى وتقديمه على اللفظ، وتفضيل العربيّة على سائر اللغات، إلى جانب منظور ثالث وهو: النزعة العربيّة والتصدّي للشعوبيّة.

٢. *الاهتمام بالمعنى وتقديمه على اللفظ*

كنّا قد ذكرنا آنفًا جهود الخليل وسيبويه في عمليّة بناء اللغة ووضْعِ مناهجَ لتقعيدها وسنّ قوانينها؛ وما يهمّنا في هذا المقام ابن جنّي الذي استمدّ، على ما يبدو، منهج سيبويه في الحمل على المعنى، أي اعتمد التعليل بتفسير المعنى. والواقع أنّ ابن جنّيّ لم يعتمد منهج الحمل على المعنى في التعليل وحسب، بل خصّص له بابًا أسماه "الحمل على المعنى"،[٢١١] وقد مهّد له في الفصول الأولى من كتابه قائلًا: "فإنّ العرب فيما أخذناه عنها، وعرفناه من تصرُّف مذاهبها، عنايتها بمعانيها أقوى من عنايتها بألفاظها. وسنُفرد لهذا بابًا نتقصّاه فيه بمعونة الله".[٢١٢] كما خصّص المصنِّف بابًا آخر للتفسير على المعنى دون اللفظ،[٢١٣] يستهلّه

---

[٢١١] *الخصائص*، ابن جنّي، ٤١٣/٢.

[٢١٢] نفسه، ١٥١/١.

باعتباره مبحثًا مُختَلفًا فيه وموضعًا "قد أتعب الناس كثيرًا ودعاهم إلى سوء الرأي"؛ وردّ هذا الاختلاف إلى تمسّك أصحاب الأقوال "المستشنعة" بالظواهر، وإغفالهم البحث عن سرّ المعنى ومعاقد الأغراض.[٢١٤] ولم يكتفِ ابن جنّيّ بالتركيز على المعاني دونًا عن الألفاظ، بل أفرد بابًا للردّ مَن ادّعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني.[٢١٥]

كذا نلاحظ أن ابن جنّيّ يعدّ التعليل بالحمل على المعنى من باب حُسن الصنعة وتحصين المعاني؛ فيقول: "فقد علم بهذا أن زينة الألفاظ وحليتها لم يقصد بها إلا تحصين المعانى وحياطتها. فالمعنى إذًا هو المكرَّم المَخدوم، واللفظ هو المتبذل الخادم"،[٢١٦] ويقول أيضًا: "فالمعنى إذًا أشيعُ وأسْيَر حُكمًا من اللفظ؛ لأنَّك فى اللفظيّ متصوّر لحال المعنويّ، ولست في المعنويّ بمُحتاجٍ إلى تَصوّر حُكم اللفظيّ".[٢١٧]

أمّا في حُسن الصنعة، فقد أورد ابن جنّيّ بعض المواضع التي ينوب اسم الفاعل فيها عن اسم المفعول، بمعنى آخر حين يأتي اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول. ومن ذلك قوله تعالى ﴿مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [سورة الطارق: ٦] أي مَدْفوق. كما نقل عن الأصمعيّ قوله: "ناقةٌ ضارب إذا ضُربت"، فجاء اسم الفاعل "ضارب" بمعنى "المضروب"؛ وهذا التفسير جاء بحسب ما يقتضيه المعنى وبما تقتضيه حُسن الصَّنعة.[٢١٨]

---

[٢١٣] نفسه، ٢٦٣/٣.

[٢١٤] نفسه.

[٢١٥] نفسه، ٢١٦/١.

[٢١٦] نفسه، ١٥١/١.

[٢١٧] نفسه، ١١٢/١.

[٢١٨] نفسه، ١٥٣/١.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ تحصين المعنى وحُسن الصنعة من معاني الحكمة وتجلّياتها في كتاب الخصائص، ولنا وقفة مفصَّلة عندهما في موضع لاحق من هذا الفصل.

وممّا يقع من المعاني في باب الحكمة ما تنبّه ابن جنّيّ له من قدرة العربيّ على الجمع بين القويّ والضعيف في الكلام، فيقارن في "باب في الجمع بين الأضعف والأقوى في معنى واحد" الجمع بين القويّ والضعيف من المعاني بالجمع بين القويّ والضعيف من التركيب، مُظهرًا بذلك حكمة العربيّ الذي تمكّنت اللغةُ في نفسه وثبَتت أنّه ما تجنّب ما ضَعُف في كلامه، بل أظهر في استخدامه للغة طواعيتها على تقوية الضعيف من خلال ذكره مع ما هو أقوى منه في المعنى.[٢١٩] ويضرب المصنِّف على ذلك أمثلة كثيرة، أذكر منها ما نقله عن سيبويه من صحّة الجمع بين ترخيمَيْ "يا معاوية": فالأوّل (يا معاوى) مرخَّمًا على "يا حارُ" وهو الأضعف؛ والثاني (يا معاوِ) مرخَّمًا على "يا حارِ" وهو الأقوى.[٢٢٠]

ومن المفيد أن نذكر في سياق الحديث عن اهتمام ابن جنّيّ بالمعنى—أسوةً بسيبويه— اهتمامه أيضًا بدراسة العلاقة التي تجمع اللفظ بالمعنى؛ فهو يرى أنّ الألفاظ "أدلّةُ" المعاني وقد وضعها العرب خدمةً للمعنى الذي أرادوا الإبانة عنه، لذا أولوا ألفاظهم عنايةً شديدة في سبيل تهذيبها وإصلاحها،[٢٢١] ومن ذلك مقابلة اللفظ للمعنى من حيث القوّة والضعف، كتضعيف عين الفعل دليلًا على تكرار الفعل فيقول: "وذلك

---

[٢١٩] انظر : نفسه، ٣١٧/١-٣٢٠.

[٢٢٠] نفسه، ٣٢٠/١.

[٢٢١] نفسه، ٣١٣/١.

أنّهم لمّا جعلوا الألفاظ دليلةَ المعاني فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوّة الفعل والعين أقوى من الفاء واللام".[٢٢٢]

ونذكر أيضًا بعض الأبواب التي أفردها ابن جنّيّ لهذه المسألة ومنها:[٢٢٣] باب في اللفظين على المعنى الواحد يردان عن العالم متضادين؛ باب في إيراد المعنى المراد بغير اللفظ المعتاد؛ باب في اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين في الحروف والحركات والسكون؛ باب في توجّه اللفظ الواحد إلى معنيين اثنين؛ باب في قوّة اللفظ لقوّة المعنى وغيرها من الأبواب التي سنتوسّع في ذكرها فيما يلي.

وتَحْسُن الإشارة إلى أن ابن جنّيّ استمدّ منهج سيبويه في تحليل العمليات العقليّة التي يمارسها المتكلّم العربيّ.[٢٢٤] كما تأثّر تأثُّرًا شديدًا بمنهجيّته[٢٢٥] في البحث عن العلل الكامنة خلف الظواهر اللغويّة وتحديد خصائص الحكمة التي أودعتها هذه اللغة الشريفة.[٢٢٦] والدليل على ذلك استشهاده بكلام سيبويه في باب العلل "وليس شيء ممّا يُضطرّون إليه إلّا وهم يحاولون به وجهًا"، من جهة؛ وتعليقه على هذا الكلام من جهة أُخرى، فيقول: "وهذا أصل يدعو إلى البحث عن علل ما استُكرهوا عليه؛ نعم ويأخذ بيدك إلى ما وراء ذلك، فتستضيء به وتستمدّ التنبُّه على الأسباب المطلوبات منه".[٢٢٧]

---

[٢٢٢] نفسه، ١٥٤/٢.

[٢٢٣] انظر: *الخصائص*، ابن جنّي، ٢٠٠/١؛ ٤٦٨/٢؛ ٩٥/٢؛ ١٦٦/٣؛ ٢٦٧/٣ على الترتيب.

[٢٢٤] R. Baalbaki, *The Legacy of the Kitāb*, p 274.

[٢٢٥] نفسه، ص ٢٨٠–٢٨١.

[٢٢٦] *الخصائص*، ابن جنّي، المقدّمة/١.

[٢٢٧] نفسه، ٥٤/١–٥٥.

٣. *تفضيل العربيّة على سائر اللغات*

يقف ابن جنّيّ في مؤلّفاته —لا سيّما في الخصائص— موقف المحبّ الشغوف للعربيّة. وقد دعاه هذا الموقف إلى استنباط جوانب الحكمة فيها، واعتبار حكمة الواضع أساسًا يتبعُه في معالجة المادّة اللغويّة، على أنّ هذا الواضع نفسه يمتلك معرفة حدسيّة من سليقته وفطرته لِما عليه أن يستخدم وكيف يكون هذا الاستخدام.[٢٢٨] ومن أمثلة ذلك يقول: "واعلم فيما بعد أنني على تقادم الوقت دائمُ التنقير والبحث عن هذا الموضع، فأجدُ الدواعي والخوالج قويّة التجاذب لي، مختلفة جهات التغوّل على فكري. وذلك أنني إذا تأمَّلت حالَ هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة، وجدتُ فيها من الحكمة والدقّة والإرهاف والرقّة ما يملكُ عليَّ جانب الفكر حتى يكاد يطمحُ به أمامَ غلوة السِّحر".[٢٢٩]

وينمُّ هذا الموقف أيضًا عن وعي وإدراك لِما في هذه اللغة من الأسرار والأغوار، فلا يُستغرب إذًا من احتمال احتواء اللغة على ظواهر تتفرّد بها عن سائر اللغات أو من احتوائها على ظواهر عميقة تستدعي الدراسة والتأمّل.[٢٣٠] وقد تميّز ابن جنّيّ بمعالجته القضايا اللغويّة والنحويّة من منظور متجدّد، إذ لم يَسْعَ في كتابه هذا إلى نقل المعرفة فحسب، لأنه أمرٌ قد فُرغ منه، بل أراد إثارة "معادن المعاني" —على حدِّ تعبيره— والغوص في الأسباب والعلل وراء المُسَلَّمات إذا صحَّ القول، فلم يقف عند ظواهر الرفع والنصب والجرّ بل بحث عن الأسباب الكامنة وراء هذه الأحكام.[٢٣١] وهنا يظهر مَكْمَن التفرُّد والعبقريّة عند ابن جنّيّ عن سائر

---

[٢٢٨] R. Baalbaki, *The Legacy of the Kitāb,* p 274.

[٢٢٩] *الخصائص*، ابن جنّي، ٤٨/١.

[٢٣٠] للتوسّع، انظر : *ابن جنّـيّ عالم العربيّة*، حسام النعيمي، ص ٧١–٧٥.

[٢٣١] انظر: *الخصائص*، ابن جنّي، ٣٣/١ و٦٨. ومثال ذلك ما أورده في "باب القول على البناء" (الخصائص ٣٨/١) من تعليل اصطلاح العلماء على استعمال "البناء" للإشارة إلى حالة لزوم أواخر الكلم ضربًا واحدًا من السكون، فيشرح قائلًا: "إنّما

أقرانه، إذ فتح بابًا جديدًا لم يُسبق إليه؛ وفي طرح القضايا اللغويّة ومعالجتها من زوايا معرفيّة ومنهجيّة؛[٢٣٢] فتراه يقول مثلًا: "لم يُلمم فيه بما نحن عليه"؛ و"لم يذكر من أصحابنا هذا الموضع"؛ و"لم يتعقّب هذا الموضع عليه أحدٌ من أصحابه [أي سيبويه]"؛ و"لم أرَ أحدًا من أصحابنا ذكر"؛ و"هذا موضع من العربيّة لطيف، لم أرَ لأحد من أصحابنا فيه رسمًا، ولا نقلوا إلينا فيه ذكرًا"؛ و"هذا موضع لم يسمّه أحد من أصحابنا"...[٢٣٣]

فمن ذلك مثلًا نظريّة الاشتقاق الأكبر التي عُرفت عنه، والتي تطرّق إليها في كثير من المواضع في كتابه، كما أفرد لها بابًا خاصًّا.[٢٣٤] وتقوم هذه النظريّة على التقاليب الستة للأصل الواحد، إذ يُحتمل نظريًّا للجذر الثلاثيّ الواحد ستّةُ تقاليب، تستعمل العرب منها ما تستعمل وتُهمل ما تُهمل. وهذا أمرٌ قد سبقه إليه الخليل في العين؛ إنّما حصل التجديد عند ابن جنّيّ حين تنبّه إلى إمكانية جمع هذه التقاليب وما يتصرّف منها تحت معنى واحد، فيختصّ كلّ تقليبٍ من هذه التقاليب بمعنى يُستعمل فيه وتلتقي في معنى جامع يضمّ الأصول الستّة، وإن تباعد تقليب من هذه التقاليب عن المعنى العام رُدّ إليه "بحُسن الصنعة والتأويل إليه".[٢٣٥] من ذلك تقليب (ج ب ر)[٢٣٦] الذي يحمل معنى القوّة والشدّة؛ فمنه (جبرت العظم والفقير) إذا قوّيتهما وشددت

سمّوه بناء لأنّه لمّا لزم ضربًا واحدًا فلم يتغيّر الإعراب سمّي بناءً، من حيث كان البناء لازمًا موضعه". ومن ذلك أيضًا ما أورده من تعليلٍ لرفع المرفوع ونصب المنصوب، إذ ردَّ ذلك إلى حزم العرب وميلهم إلى الخفّة في كلامهم، فرفعوا الفاعل لقلّته ونصبوا المفعول لكثرته علمًا أنّ الرفع أثقل من النصب على اللسان (الخصائص ٥٠/١).

[٢٣٢] R. Baalbaki, *The Legacy of the Kitāb,* p 274.

[٢٣٣] انظر على الترتيب : *الخصائص*، ابن جنّي، ٧٢/٢-٣١٠-٣٦٧، و ١٠٨/٢-١٣٥.

[٢٣٤] *الخصائص*، ابن جنّي، ١٣٥/٢.

[٢٣٥] نفسه، ١٣٦/٢؛ وهذا من باب الحكمة كما سنبيّن لاحقًا.

[٢٣٦] نفسه، ١٣٧/٢-١٣٨.

منهما، و(الجَبْر): المِلك لقوّته وتقويته لغيره، ومنها (رجل مجرَّب) إذا جرَّسته الأمورُ ونَجَذَته، فقويت مُنَّته واشتدَّت شَكيمته. ومنه (الجِراب) لأنّه يحفظ ما فيه وإذا حُفظ الشيء وروعى اشتدَّ وقوي، وإذا أغفل وأهمل تساقط ورَذِيَ. ومنها (الأبجر والبُجْرة) وهو القويُّ السُّرّة، ومنه (البرج) لقوّته في نفسه وقوّة ما يليه به، وإذا كَرُمت النخلة على أهلها فمالت دَعَموها (بالرُّجْبة) وهو شيء تُسند إليه لتقوى به، و(الراجِبة) أحد فصوص الأصابع وهي مقوِّية لها.

وهو لا يدَّعي أنّ الاشتقاق سارٍ في جميع اللغة، بل هو مذهبٌ من اللغة مُستَحْسَن، يُعينك عند الحاجة ويُظهر لك عظيم شرف هذه اللغة؛ ودليله في ذلك أستاذه الفارسيّ الذي استعان بالاشتقاق لترجيح كون لام "أُثْفيَّة" واوًا.[٢٣٧] وجدير بالذكر أن الاشتقاق مبنيٌّ على مادّة واحدة تشكّلت على صور مختلفة، فكأنّها لفظة واحدة "فإنَّ المعاني وإن اختلفت معنياتها آوية إلى مضجع غير مُقِضّ وآخذ بعضُها برقاب بعض".[٢٣٨]

وقد حداه شغفه وتعظيمه للعربيّة على رؤية اللغة من منظور متفرّد؛ ولم يكتفِ ابن جنّيّ بالكشف عن أسرار العربيّة ومعالجة ظواهرها المختلفة، بل أيقن أنها تتميّز بصفات انفردت بها عن سائر اللغات من "غموضٍ ودقّة وإتقان"، وتحمل في أغوارها "خصائص الحكمة" و"علائق الإتقان والصنعة".[٢٣٩] وهو في موقفه هذا معترفٌ بفضل العربيّة على سائر اللغات، فالعربيّة فيها ما فيها من "لُطف الصنعة"، وتحمل من الصفات ما يجعلها اللغةَ الفُضلى بدون منازع حتّى إن العجم لو عرفوا قَدر العربيّة وعظيم شأنها لاعتذروا عن تفضيل لغتهم وقدّموا العربيّة عليها، ومصداق ذلك قوله: "فأيَّة فضيلة للعربيّة على العجميّة قيل: لو أحسَّت العجم

---

[٢٣٧] نفسه، ٢/١٤٠-١٤١.

[٢٣٨] نفسه، ٢/١٤١.

[٢٣٩] نفسه، ١/١.

بلطف صناعة العرب في هذه اللغة وما فيها من الغموض والرقّة والدقّة، لاعتذرت من اعترافها بلغتها فضلًا عن التقديم لها والتنويه منها".[٢٤٠] كما أن العربيّ ذا الأصل الأعجميّ لا يقبل حتّى أن يُسأل أي اللغتين أفضل، فالجوابُ عنده محسومٌ، وموقعُ العربيّة في نفسه معروف، وهو "موضع ليس للخلاف فيه مجال لوضوحه عند الكافّة".[٢٤١]

٤. *النزعة العربيّة والتصدّي للشعوبيّة*

٤-١. <u>موقف ابن جنّيّ من العرب</u>

أيقن ابن جنّيّ بقدرة العربيّ وذكائه على تطويع لغته، وبناء جهازٍ نحويّ يمتاز بالدقّة والإحكام، ويعكس من خلال نظامه الدقيق مظاهر الصنعة والإتقان التي تُظهر بدورها عظمة أهل الصنعة وحكمتهم. انطلاقًا من هذه الرؤية سعى ابن جنّيّ إلى استنباط جوانب الحكمة الواقعة في كلام العربي، وتعليل كلّ الظواهر اللغويّة، حتّى إذا لم تظهر العلّة بحث عنها وردّها مثلًا إلى لُطف الصنعة والتأويل. فيقول: "وما يجيء مخالفًا أو منتقضًا أوسعُ من ذلك؛ إلّا أنّ لكلّ شيء عذرًا وطريقًا"؛[٢٤٢] فكأنّما أراد أن يُرَفِّع لغة العرب عن أي

---

[٢٤٠] نفسه، ١/٢٤٢-٢٤٣.

[٢٤١] نفسه.

[٢٤٢] نفسه، ٢/٢٢٥. يظهر لنا من هذا الكلام أنّ ابن جنّيّ قد ذهب مذهب البحث عن العلل والتبريرات لأيّ ظاهرةٍ قد تبدو للمتلقّي متناقضة أو شاذّة... حتّى وإن لم تكن العلّة قائمة، نراه يسعى إلى وضع العلّة التي يرتئيها ملتزمًا بقاعدة أنّ "العرب قوم لا يتركون شيئًا إلّا ويحاولون له وجهًا" (الخصائص ١/٥٤-٥٥)، فهو يسعى بشتّى الوسائل إلى إظهار شرف اللغة وعظيم تركيبها مستخدمًا ملكَته العقليّة وقدرته على التعليل والتحليل.

من ذلك: الباب الذي عقده لتبرير الظواهر التي جاءت مناقضةً لعادة الاستعمال في اللغة (باب في نقض العادة ٢/٢١٦). ويذكر في هذا الباب لغةً من لغات العرب يأتي وزن "فَعَل" فيها متعديًّا ووزن "أفعَل" لازمًا. وهذا مناقضٌ للعادة اللغويّة التي

شيء يتناقض مع حكمتها مستعملًا أدواته النحويّة التي ساهمت في بناء جهازٍ نحويّ ذي أجزاء منسجمة وتفاصيل متكاملة.

وهذا الإعجاب باللغة إنّما هو ترجمةٌ لإعجاب ابن جنّيّ بأصحاب اللغة أنفسهم؛ فالعربيُّ عند ابن جنّيّ، قد أوتيَ لغته بالسليقة والطبع، وهو مُحِسٌّ لعظيم ما وهبه الله من "لُطف الحسّ وصفائه" و"نصاعة جوهر الفِكر ونقائه"، فلم يُرزق هذه اللغة إلّا وهو أهل لحملها ونفسه قابلةٌ إليها، وموقِنةٌ بقوّة الصَّنعةِ فيها. فالعرب نطقت العربيّة بالسليقة وِفق نظام محدّد دون أن تتكلّف قواعدها ومبادءها وهذا "أحزمُ لها وأجمل بها وأدلّ على الحكمة المنسوبة إليها".[٢٤٣] ويمكننا القول إن النُّحاة قد استنبطوا العلل التي يظنّون أنّها تُبرز الحكمة في اختيار العرب لوجه محدّد في الكلام دونًا عن غيره، إذ "لست تجدُ شيئًا ممّا علّل به القوم وجوهَ الإعراب إلّا والنفس تقبلُه والحسُّ منطوٍ على الاعتراف به".[٢٤٤]

يمكننا أن نستنتج إذًا من موقف ابن جنّيّ هذا طبيعة العلاقة التي تجمعه بهذه اللغة؛ وبالتالي تتكشف لنا العلاقة التي تربطه بأصحاب العربيّة، ذلك أن "المَرويَّ عنهم في شغفهم بلغتهم وتعظيمهم لها واعتقادهم

تقتضي أن يأتي "فَعَل" لازمًا و"أفعل" متعدّيًا لوقوع همزة التعدية فيه. ومبرِّر ذلك عنده أنّ وزن "فعل" جاء في هذه اللغة متعدّيًا، وسُلِب فيها الوزن "أفعل" التعدّي الذي عُهد عليه، فجاء لازمًا، وذلك تعويضًا لنقصٍ يعتري الوزن "فعَل" في سائر اللغات؛ فيقول: "جُعل تعدّي فعلت وجمود أفعلت كالعوض لفعلت من غلبة أفعلت لها على التعدّي" (٢١٧/٢).

واللافت في هذا التعليل أن ابن جنّيّ يبرّر لظواهر اللغة وكأنّه يتعامل مع كائن حيّ ذي حاجات نفسيّة؛ يعتريه نقصٌ في مكان فيعوّض عنه في مكانٍ آخر.

[٢٤٣] انظر : *الخصائص*، ابن جنّي، ٢٣٨/١ و٢٤٠؛ ٢٧٦/٣.

[٢٤٤] *الخصائص*، ابن جنّي، ٥٢/١.

أجمل الجميل فيها أكثر من أن يورَد".[٢٤٥] فالعرب قومٌ حكماء عرفوا لغتهم وتعايشوا معها وفيها، حتّى بلغوا مرحلةً تسمح لهم بتصوّر التغييرات التي ستقع في اللغة حالَما توضع في الاستعمال،[٢٤٦] وهذا "أدلّ على حكمتها، وأشهد لها بعلمها بمصاير أمورها".[٢٤٧] وعليه فإنّ مَردّ هذه الحكمة إلى الواضع، الذي يمتلك معرفة في حَدْسِه وطبعه لِما عليه أن يستخدم وكيف يكون هذا الاستخدام.[٢٤٨] ويذكر ابن جنّيّ قصّة نقلها عن أبي حاتم السجستانيّ في كتابه "القراءات" حين التقى أعرابيًّا بالحرم، فقرأ عليه "طِيبي لهم وحُسْنُ مآب" فقال له السجستانيّ: "طُوبى"، فأجابه الأعرابيّ: "طِيبي"؛ فلمّا طال الموقف قال أبو حاتم: "طو طو"، فأجابه الأعرابيّ: "طي طي". ثمّ يعلّق ابن جنّيّ على القصّة واصفًا دماثة الأعرابيّ وطواعيته، فيراه قد تشرّب اللغة في طبعه و"تساند إلى سليقته ونَجْره"، ومال إلى الخفّة، فلَم يقبل الواو رغم مع تلقين السجستانيّ له.[٢٤٩] وغالبًا ما يعبّر ابن جنّيّ عن "الحدس" و"البداهة" عند العرب الأقحاح بكلمات تعبّر عن "الطبع" و"النَجْر" فيقول مثلًا "وهو ما لا بُدّ للطبع منه"،[٢٥٠] أو بعبارات تعبّر عن "لطف الحسّ وصفائه" و"نصاعة جوهر الفكر ونقائه"

---

[٢٤٥] نفسه، ٢٤٣/١.

[٢٤٦] نقل ابن جنّيّ رأي أبي الحسن الأخفش في مسألة التغيير الطارئ من كثرة الاستعمال فيقول: "وكان أبو الحسن يذهب إلى أن ما غُيِّر لكثرة استعماله إنّما تصوّرته العرب قبل وضعه وعلمت أنّه لا بُدَّ من كثرة استعمالها إيّاه فابتدؤوا بتغييره علمًا بأنَّ لا بُدَّ من كثرته الداعية إلى تغييره... والقولُ عندي هو الأوّل لأنّه أدلُّ على حكمتها وأشهد لها بعلمها بمصاير أمرها". (الخصائص ٣١/٢-٣٢).

[٢٤٧] *الخصائص*، ابن جنّي، ٣٢/٢.

[٢٤٨] R. Baalbaki, *The Legacy of the Kitāb,* p 274.

[٢٤٩] *الخصائص*، ابن جنّي، ٧٧/١.

[٢٥٠] نفسه، ٨٩/١.

و"قوّة نفسه ولُطف حسّه".[٢٥١] ثمّ إنّ العرب قد "تأمّلت مواضع الكلام" عن سابق معرفة ودراية بحيثيّات اللغة، فرفعت عند الرفع ونصبت عند النصب وجرَّت عند الجرّ؛ كلٌّ بحسب مواقع الكلمات في الجمل وحصّتها من الإعراب. فنرى ابن جنّيّ قد سأل يومًا أبا عبد الله الجوثيّ، وهو أعرابيّ من تميم جُوثة، كيف يقول "ضربتُ أخوك" فأجابه بنصبِ أخوك؛ ولم يفلح ابن جنّيّ في أن يردّ الأعرابيّ عن قوله فيرفع؛ فسأله: كيف تقول "ضربني أخوك"؟ فرفع هنا. فأجابه ابن جنّيّ: ألست زعمت أنك لا تقول "أخوك" أبدًا؟ فأجابه الأعرابيّ: "أيشٍ هذا؟ اختلفت جهتا الكلام". وهذه الرواية إنّما تدلُّ على رسوخ اللغة في أذهان العرب فلا يقبلون تغيير شيءٍ ممّا طُبعوا عليه، فينطقون بالعربيّة دون تكلُّف قواعدها وضوابطها. وليُتنبَّه أن النُّطق استنادًا إلى السليقة والطبع لا يتعارض مع كون العربيّ يعرف خبايا لغته ولا ينطق بشيٍ عن "استرسال وترجيم" بل عن "مِيزة وعلى بصيرة"، فيوقع الكلام مواقعه.[٢٥٢] وعلاوةً على الروايات المنثورة في الكتاب، والتي تُظهر سليقة العربيّ وطبعه، خصّص ابن جنّيّ بابًا عنوَنَه: "باب في أن العرب قد أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه إليها وما حملناه عليها".[٢٥٣] وغرضه من ذلك أوّلًا أن يُظهر وعي العربيّ لتراكيب الكلام المنطوق، وثانيًا أن يُثبت صحّة العلل والقواعد والأُسس النحويّة، في زمنٍ سادت فيه مقولة "أضعف من حُجّة نحويّ"، وثالثًا أن يُبرز دور النُحاة الذين دخلوا إلى ذهن العربي فأعادوا تحليل العمليّات العقليّة التي يمرّ بها الناطق العربيّ تحديدًا

---

[٢٥١] انظر: R. Baalbaki, *The Legacy of the Kitāb,* p 275.

انظر أيضًا: الخصائص ١/٢٤٠؛ ٢/١١٨ و٢٧٥؛ ٣/٢٧٤ و٢٧٦.

[٢٥٢] *الخصائص*، ابن جنّي، ١/٧٧.

[٢٥٣] نفسه، ١/٢٣٧.

للعلّة التي تتناسب مع تلك المطبوعة في ذهنيّة المتكلّم. بمعنًى آخر عقد ابن جنّيّ هذا الباب تأكيدًا منه على أنَّ ما ينسبه النحويّون للعرب محفورٌ في نفوسهم.[٢٥٤]

يتبيّن لنا إذًا، من خلال الروايات التي أوردها ابن جنّيّ في الخصائص،[٢٥٥] أنّ العرب اهتمّت بأدقّ التفاصيل المتعلّقة بتراكيب الكلام من خفّة وثقل وإطناب وإيجاز وإعراب وغيرها؛ معتمدةً على الحَدْس والبصيرة والسليقة التي طُبعوا عليها، والتي بها يتخيّرون وجوه الكلام. ففكرة الحكمة أساسٌ لفهم منهجيّة ابن جنّيّ في تحليل الاستعمال اللغويّ عند المتكلّم، وهي الميزان الذي به تُقاس جميع الظواهر اللغويّة. كما يفترض ابن جنّيّ أن الحكمة أساس من الأُسس القائمة باللغة، ذلك أن حكمة الواضع ملموسة في جوانب اللغة كلّها،[٢٥٦] من إعلال وغرضٍ وقصدٍ وأصواتٍ ولغاتٍ، وفي مستوياتها الأربعة: النحويّة والصرفيّة والدلاليّة والصوتيّة. ويرى بعلبكي[٢٥٧] أن الحكمة —وهي فكرةٌ مجرَّدة— متجسِّدةٌ في المادة اللغويّة التي سُمعت عن العرب الأقحاح ونُقلت عنهم بالرواية. وبناءً عليه، إذا ثبت أن العرب الأقحاح قد أوتوا اللغة بالسليقة والفطرة حتى صارت سِمةً ثابتةً لهم، أصبح منطقيًّا أن تنعكس حكمة الواضع في كلامهم، وبالتالي حكمة اللغة.

ولا يخفى أن اللغة هي أداة العربيّ ووسيلته للتواصل والتعبير، وبالتالي تشكّل انعكاسًا لحكمته وقوّة نظره في بناء هذا النظام، الذي به تعملُ هذه اللغة. وهو نظامٌ متقنٌ ذو صفاتٍ محدّدة؛ وقد سعى ابن

---

[٢٥٤] انظر: R. Baalbaki, *The Legacy of the Kitāb*, p 275-276

[٢٥٥] للتوسّع في الروايات التي تدلّ على أن العرب أوتو العربيّة بالسليقة، انظر مثلًا: الخصائص ١/٨٠-٩١.

[٢٥٦] انظر: نفسه.

[٢٥٧] انظر: R. Baalbaki, *The Legacy of the Kitāb*, p 274-275.

جنّيّ—في مواضع متفرّقة من كتابه— إلى تقصّي أُسس هذا النظام وعرض أبرز خصائصه، كما عرض صفة كلام العرب التي تتلخّص بما يلي:

- استعمال ما يحسُن لفظه وتقبله النفس في الخطاب (٢٦٧/١؛ ٢٢٩/٢؛ ٣٢٢/٣).
- طرح ما يُستقبح من التراكيب (نفسه).
- الاهتمام بالمعاني وتمكينها والاحتياط لها (١٥١/١؛ ٤٦٨/٢).
- الاهتمام بالألفاظ عنايةً بالمعاني التي وراءها (٢٢١/٢).
- استعمال لهجات متعدّدة واعتبارها كلّها حُجّة، لأن سعة القياس تبيح ذلك (١٢/٢).
- المَيْل إلى الإيجاز في الكلام (٨٤/١).
- اختيار العرب الصورة الثانية مشابهةً لأصول كلامها عند استبدال شيء بشيء (٦٨/٢ و٤٧٢).
- تأمُّل مواقع الكلام عن دراية وبصيرة (٧٧/١).
- إعطاء الكلام حقّه في كلّ موضع وحصّته من الإعراب (٧٧/١).

إذًا يظهرُ لنا في خلاصة هذا القسم أنّ ابن جنّيّ قد قارب الحكمة من خلال نظرته إلى اللغة القائمة على ثلاثة مستويات: تقديم المعنى على اللفظ، وتفضيل العربيّة على سائر اللغات، والنزعة العربيّة المعاكسة للشعوبيّة.

٤-٢. التصدّي للشعوبيّة

أثبتنا في القسم السابق تميُّز ابن جنّيّ بنزعةٍ عربيّة بيِّنة، بل وشكّلت بُعدًا جديدًا تفرّد به لمعالجة المادّة اللغويّة المسموعة عن الأعراب. [٢٥٨] وقد حداه حبّه للعربيّة وغيرته عليها على التصدّي لظاهرة الشعوبيّة المنتشرة آنذاك.

لكن قبل أن نذكر كيف تصدّى ابن جنّيّ لهذه الظاهرة، لا بُدّ لنا من تعريف مقتضب للشعوبيّة يسهّل على القارئ فهم موقف ابن جنّيّ في مقاربته للحكمة.

الشعوبية من حيث اللغة مشتقَّة من الشعب، والشعبُ: ما تشعَّب من قبائل العرب والعجم، وقد غلبت الشعوب، بلفظ الجمع على جيل العجم، حتّى قيل لمحتقر أمر العرب: شعوبيّ، والشعوبيُّ: هو الذي يُصغِّر شأن العرب ولا يرى فضلًا لهم على غيرهم. [٢٥٩] والشعوبيّة: نزعة تذهب إلى حطِّ شأن العرب أو نقدهم، وقد عرّفها القرطبيّ قائلًا: "هي حركة تبغض العرب وتفضِّل العجم". [٢٦٠] وقال عنها صاحب الصحاح: "الشعوبيّة فرقة لا تفضِّل العرب على العجم". [٢٦١] وجاء في القاموس المحيط: "الشعوبيّ: محتقر أمر العرب". [٢٦٢] وفي المعجم الوسيط هي: "نزعةٌ في العصر العباسي تُنكر تفضيل العرب على غيرهم، وتحاول الحطَّ منهم". [٢٦٣]

---

[٢٥٨] انظر: نفسه.

[٢٥٩] *اللسان*، ابن منظور، مادّة (شعب).

[٢٦٠] *تفسير القرطبيّ*، القرطبيّ، ١٨٩/١١.

[٢٦١] *مختار الصحّاح*، محمّد بن أبي بكر الرازي، مادّة (شعب).

[٢٦٢] *القاموس المحيط*، الفيروز أبادي، مادّة (شعب).

[٢٦٣] *المعجم الوسيط*، مادّة (شعب).

يتبيّن لنا من تعريفات ظاهرة الشعوبيّة ومن موقف ابن جنّيّ تجاه العربيّة وأهلها، أنّه قد كلّف نفسه الدفاع عن العرب "يذود عن مجدِها ومِقْولًا يُبين عن حكمتها وسداد لغتها ونبالة أحوالها".[٢٦٤] وليتنبّه من بعض الأقوال التي تنسب الشعوبيّة إلى ابن جنّيّ بسبب أبيات[٢٦٥] أوردها يذكر فيها نسبه إلى الروم، لأنّ مجرّد ذكر هذه الأبيات لا تجعل منه مناصرًا للفكر الشعوبيّ، بل لا يكاد يقترب حتّى من أن يكون شعوبيًّا، فهو لا يضيّع فرصةً إلّا ويعبّر فيها عن إعجابه باللغة وبأهلها وبحكمتهم، بحيث لا يترك للقارئ شكًّا بعكس ذلك.

فمن ذلك الأبيات التي رواها عن أبي المهديّة بعد أن امتدح العرب الذين أوتوا لُطف الحسّ ونقاوة الفكر فيقول:

يقولـــون لـــي شـــنْبِذ ولســـتُ مشـــنبِذًا طَـــوال الليـــالي مـــا أقـــام ثَبيـــر[٢٦٦]

ولا قـــــائلا : زوذًا ليعجـــــل صـــــاحبي وبســـتان فـــى صـــدري علـــيَّ كبيـــر[٢٦٧]

ولا تاركـــــا لحنـــــي لأحُســـــن لَحْـــــنهم ولـــو دار صـــرف الـــدهر حيـــث يـــدور

---

[٢٦٤] *الخصائص*، ابن جنّيّ، مقدّمة المحقّق/٣٧.

[٢٦٥] انظر: *الخصائص*، ابن جنّيّ، مقدّمة المحقّق/٣٧.

فـــإن أصـــبح بـــلا نسب فعلمـــي في الـــورى نســـبي
علـــى أنـــي أؤول إلـــى قُـــروم ســـادة نُـــجُـــبِ
قـــياصـــرة إذا نَطَقـــوا أَرَمَّ الـــدهرُ ذو الخُطَـــبِ

[٢٦٦] "شَنْبِذ" أي قُل: شون بوذ، وهي عبارة فارسيّة معناها: كيف؟

[٢٦٧] "زوذ" بالفارسيّة أي عجِّل. و"بِستان" أي خُذ.

وممّا يُظهر موقف ابن جنّيّ الموالي للعربيّة وأهلها قوله مثلًا: (١) "وسنتقصّى هذا الموضع فإنّه شريفٌ عظيم"؛[٢٦٨] (٢) و"ما أبعدَك عن تصوّر أحوالهم، وبُعد أغراضهم، ولطف أسرارهم، حتّى كأنّك لم ترهم وقد ضايقوا أنفسهم، وخفَّفوا عن ألسنتهم، بأن اختلسوا الحركات اختلاسًا، وأخفّوها فلم يمكّنوها في أماكن كثيرة ولم يشبعوها"؛[٢٦٩] (٣) و"استمرار ذلك في المضموم والمكسور، دون المفتوح، أدلّ دليل —بفصلهم بين الفتحة وأختيها— على ذوقهم الحركات، واستثقالهم بعضها واستخفافهم بعضها الآخر. فهل هذا ونحوه إلّا لإنعامهم النظر في هذا القدر اليسير، المحتقَر من الأصوات، فكيف بما فوقه من الحروف التوامّ، بل الكلمة من جملة الكلام"؛[٢٧٠] (٤) و"فهل هذا إلّا أدلّ شيء على تأمّلهم مواقع الكلام، وإعطائهم إيّاه فى كل موضع حقّه، وحصّته من الإعراب، عن ميزة، وعلى بصيرة، وأنّه ليس استرسالًا ولا ترجيمًا"؛[٢٧١] (٥) و"ممّا يزيل الشّك عنك فى رغبتهم فيما خفّ وأوجز، عمّا طال وأمل، وأنّهم متى اضطرّوا إلى الإطالة لداعي حاجة، أبانوا عن ثقلها عليهم، واعتدّوا بما كلّفوه من ذلك أنفسهم، وجعلوه كالمَنْبَهة على فرط عنايتهم، وتمكُّن الموضع عندهم، وأنه ليس كغيره مما ليست له حرمته، ولا النفس معنيّة به"...[٢٧٢] وغيرها من الأمثال الكثيرة التي تُظهر موقف ابن جنّيّ من العربيّة وأهلها، والتي تُبين عن حكمة اللغة وشرفها. وسنكتفي بما ذكرناه لتوسّعنا في هذا الموضوع في القسم اللاحق.

---

[٢٦٨] *الخصائص*، ابن جنّيّ، ٦٧/١.

[٢٦٩] نفسه، ٧٣/١.

[٢٧٠] نفسه، ٧٦/١.

[٢٧١] نفسه، ٧٧/١.

[٢٧٢] نفسه، ٨٧/١.

باء. معاني الحكمة في الخصائص

بيّنا في الأقسام السابقة نظرة ابن جنّيّ إلى اللغة وسعيه في الخصائص "إلى الكشف عن معادن هذه اللغة "الشريفة والكريمة". وقد صرّح المصنِّف في كثير من المواضع بما يميّز العربيّة عن سائر اللغات. فالعربيّة مبنيّة على نظامٍ "دقيق ورقيق وغامض"، وتتميّزُ بصنعة متقنة ومُحكمة.

هذه الأوصاف والنعوت التي أطلقها المصنِّف على العربيّة لا تُبين فقط عن نظرته وشغفه باللغة فحسب، بل تُظهر دلالات ومفاهيم أبعد من ذلك، إذ إنّ نظرة التعظيم والتشريف للعربيّة تُنسب إلى أصحاب الصنعة أيضًا، ومن ثَمّ يصبح الكشف عن الظواهر اللغويّة إبانة عن حكمتهم وانعكاسٌ لِما تحمل هذه اللغة من حكمة.

وقد اشتمل لفظ "الحكمة" على معانٍ عدّة وردت على الشكل التالي:

١. ***المنبهة***: من حكمة العرب أنّهم تركوا في كلامهم منبهةً على أصله من باب تعليل الظواهر اللغويّة. وقد اندرج تحت المنبهة ألفاظ تتعلّق بها كالأصل، ولمح الأصل، والتنبيه، والإيذان، والدليل...[٢٧٣]

وليس شرطًا أن يكون الأصل هو الأكثر استعمالًا، فقد يكون الأصل مهجورًا ولا يظهر إلّا لضرورة، كالتنبيه على أصل الباب كما يرى سيبويه ويتبعه في ذلك ابن جنّيّ.[٢٧٤]

---

[٢٧٣] انظر: الخصائص ١/٥٠-٧٨-٨٧-١٤٨-١٦٠-١٦٢-٢٥٨-٢٦٣؛ ٢/٧٧-١٣٥-٣٤٤-٣٥١-٣٥٣-٣٧٢؛ ٣/٨-٥٤-٦٢-٦٣-١١٧-١٣٥-١٣٧-٢٣٣.

[٢٧٤] يرى سيبويه أن (عَوِرَ وحَوِلَ وصَيِدَ) جاءت على معنى ما يجب أن تصحّ علّته؛ فالأصل يمكن ألّا يظهر إلّا للضرورة أو إن كان في معنى ما يجب أن تصحّ علّته ليكون مَنْبهة على أصل بابه. ومن ذلك ما ورد في "الكتاب" (٤/٣٤٤): "وأما قولهم عَوِر يعوَر وحوِل يحوَل وصيِد يصيَد، فإنّما جاؤوا بهنّ على الأصل في معنى ما لا بُدّ له من أن يخرج على الأصل. نحو:

بناءً على ذلك يمكننا اعتبار "المنبهة" تعليلًا يدلُّ على الحكمة، بمعنى أوضح لم يخرج اللفظُ عن أصلِ بابه اعتباطًا وإنما خرج "إيذانًا" ودليلًا على أنه هو الأصل. وهذا التعليل انعكاسٌ لموقف ابن جنّيّ من العربيّة والناطقين بها؛ لأنّهم، بحسب المصنِّف، وضعوا الأمور في مواضعها ومكّنوها وأفرطوا في عنايتها،[٢٧٥] وجعلوا ما شَذّ عن قاعدته "منبهة للحسّ، مَشجَعة للنفس"[٢٧٦] ليكون إيذانًا "بأصول ما كان مثله"[٢٧٧].

وتجدر الإشارة إلى أنّ المصنِّف قد عبَّر عن "المنبهة" مستعملًا مصطلحات وعبارات مختلفة، منها قوله في علّة الإدغام: "هذا ظهر على أصله منْبَهة على بقيّة بابه، فتعلم به أنّ أصل الأصمّ أصمْمَ، وأصل صبٍّ صَبِبُ"؛[٢٧٨] وقوله في باب مراتب الأشياء وتنزيلها تقديرًا وحُكمًا: "يخرجُ هكذا منبهة على أصل بابه"؛[٢٧٩] وقوله في الباب نفسه: "ومنها ما يمكن النُّطق به، غير أنّ فيه من الاستثقال ما دعا إلى رفضه واطّراحه، إلا أن يشذّ الشيء القليل منه فيخرج على أصله منبهة ودليلًا على أوليّة حاله؛ كقولهم : لَحِحتْ

اعْوَررت واحْوَللت وابْيَضضت واسْوَددت، فلمّا كُنّ في معنى ما لا بُدَّ له من أن يخرج على الأصل لسكون ما قبله تحرَّكْن، فلو لم تكن في هذا المعنى اعتلَّت، ولكنّها بُنيت على الأصل إذ كان الأمر على هذا. ومثل ذلك قولهم: اجتوَروا، واعتونوا، حيث كان معناه معنى ما الواو فيه متحرّكة ولا تعتل فيه، وذلك كقولهم: تعاونوا، وتجاوروا".

[٢٧٥] *الخصائص*، ابن جنّيّ، ٨٧/١.

[٢٧٦] نفسه، ٧٨/١.

[٢٧٧] نفسه، ١٦٢/١.

[٢٧٨] نفسه، ١٦٢/١.

[٢٧٩] نفسه، ٢٥٨/١.

عينه، وأَلِل السقاء"؛[٢٨٠] فيُفهم من ذلك أن الأفعال "لَحِحت وألِل وضننوا وضبب" خرجت شاذّةً لتدلّ على الأصل، أي لتدلّ أن أصل قرّت عينه قرُرَت، وأصل حلَّ الحبل ونحوه حلل.

ومن جُملة ما يندرج تحت "المنبهة" قولُه أيضًا: [٢٨١] (١) "خرجَ على أصله منبهةً على ما غُيّر من أصل بابه"؛ (٢) و"فكأنّ بعضه مَنْبَهة على بعض"؛ (٣) و"أو أن يخرج عن الصحّة مَنْبَهة على أصل بابه"؛ (٤) و"ليكون ذلك إيذانًا بأنّها بدل"؛ (٥) و"ألا تراهم كيف يدخلون تحت قبح الضرورة، ليعِدّوها وقت الحاجة إليها"؛ (٦) و"مراعاةً لأصل ما كان عليه"؛ (٧) و"إوزَّة أصل وضعها إوْزَزَة"؛ (٨) و"تحذف الحرف وتقِرَّ الحركة قبله نائبةً عنه، ودليلةً عليه"...

بعد النظر في الأمثلة الواردة أعلاه، نستنتج أن "المنبهة" من تجليّات الحكمة المنسوبة إلى أصحاب السليقة، وبالتالي إلى اللغة. فالمنبهةُ ولمح الأصل إنما وُضعتا من باب الاحتياط في وضع العلل والتيقُّظ إلى إنزال الأمور منازلها.

٢. ***شجاعة العربية:*** ابن جنّيّ هو أوّل من وضع هذا المصطلح، وقد جمع فيه عددًا غير يسير من الظواهر اللغويّة. ولكي نفهم ما قصده المصنِّف بذلك، لا بُدّ أن نغوص في عمق المعنى الذي يحمله هذا المصطلح ولَمس الإشارات الضمنيّة فيه. فالشجاعة لغةً شدّة القلب في البأس،[٢٨٢] وهي من صفات المروءة التي يتّسم صاحبها بالجرأة والإقدام. وقد جاء مصطلح "الشجاعة" من باب الاستعارة؛ لأنّ ابن جنّيّ يشبّه اللغة بالرجل الجريء المقدام، والقصد من ذلك إظهار طواعية اللغة على مخالفة المألوف في الاستعمال

---

[٢٨٠] نفسه، ١/٢٦٣-٢٦٤.

[٢٨١] نفسه، ٣/٥٤؛ ٢/١٣٥؛ ١/١٤٨؛ ٢/٣٥١؛ ٣/٦٢؛ ٢/٣٥٣؛ ٣/٨؛ ٣/١٣٥.

[٢٨٢] *لسان العرب*، ابن منظور، مادّة (شجع).

اللغويّ. ولا بُدّ من الإشارة إلى أنّ هذا التشبيه يتوافق مع رؤية ابن جنّيّ إلى اللغة وتعامله معها على أنّها كائن حيّ ذو حاجات نفسيّة يعتريه نقص في مكان فيعوّض عنه في مكان آخر، وقد أشرنا إلى ذلك سابقًا.[٢٨٣]

ولعلّ نظرة ابن جنّيّ إلى اللغة على أنها ظاهرة اجتماعيّة، تقبل الخضوع للتغييرات بحسب الأغراض والحاجات والأحوال، كانت سببًا لأن يجمع في فصل واحد الظواهر اللغويّة التي خرجت عن النظام المألوف للغة خدمةً لمصلحة المعنى ونَيْل المقصِد. فمن شجاعة اللغة الحذف والزيادة، والتقديم والتأخير، والحمل على المعنى، والتحريف.[٢٨٤] فمثال الحذفُ كحذف فعل القسم، وأفعال الأمر والتحضيض، وحذف المبتدأ أو الخبر، وحذف المضاف أو المضاف إليه، وحذف الموصوف وإقامة الصفة مُقامه، وغيرها من المواضع التي لا يحسُن الحذف فيها إلّا بدليل.[٢٨٥] والتقديم أيضًا فإنّه يصحُّ في مواضع —كتقديم المفعول على فعل أو الفاعل، وتقديم الظرف والحال والاستثناء— ولا يصحُّ في مواضع أُخرى — كتقديم المستثنى على الفعل الناصب له فإنّه غير جائز.[٢٨٦] وممّا جاء في الحمل على المعنى، وهو بابٌ وسيع المذاهب في اللغة: تذكير المؤنث وتأنيث المذكرّ —فالأوّل باب واسع جدًا لأنّه "ردُّ فرعٍ على أصل"، والثاني من باب "التناكر

---

[٢٨٣] انظر: ص ١٨ و١٩ من الفصل نفسه.

[٢٨٤] *الخصائص*، ابن جنّيّ، ٢/٣٦٠.

[٢٨٥] انظر/ نفسه، ٢/٣٦٠-٣٨١.

[٢٨٦] انظر/ نفسه، ٢/٣٨٢-٤١١.

والإغراب"— واستخدام المفرد بمعنى الجمع، ومعاملة غير العاقل معاملة العاقل.[٢٨٧] وغيرها من الأمثلة التي نُسقط ذكرها لضيق المقام.

يمكننا أن نستخلص إذًا، من خلال الأمثلة المذكورة، ما قصده ابن جنّيّ بالحكمة، وكيف أصبحت "شجاعة اللغة" من حكمتها؛ إذ لا يكون المرءُ شجاعًا دون حكمةٍ تدفعه إلى الاستجابة والتعامل مع المواقف باتّزان وتخطيط وإتقان بـ"قوّة النظر ومُلاطفة التأوّل".[٢٨٨] هذا ما وجده ابن جنّيّ في العربيّة وأهلها الذين "تأمّلوا" مواضع الكلام. هذه هي الحكمة التي رآها ابن جنّيّ في ظواهر اللغة القادرة على تطويع نفسها وحذف بعض عناصرها بُغية بلوغ المَقصد والتعبير عن المعنى بأسرع طريق وأفصح أسلوب. فالحذفُ، على سبيل المثال، ظاهرةٌ ثابتةٌ بحدِّ ذاتها لكنّ استخدامها هو ما يجعل منها ظاهرةً يحسُن استخدامها في موضع، ولا يحسُن استخدامها في آخر. وهنا تتجلّى الحكمة، في معرفة أهل السليقة بخبايا لغتهم وتقدير معانيها وتطويعها، وبالتالي إصابتهم في استخدامها تعبيرًا عن حاجاتهم وأفكارهم.

٣.***الشريفة/ الشريف/ الشرف***: من المعاني التي جاءت عليها الحكمة في الخصائص الشرف؛ فالمصنِّف لا يفوِّت فرصةً إلّا ويعبّر عن تشريفه وتعظيمه وتفضيله للعربيّة عن سائر اللغات. ولم يكن ابن جنّيّ أوّل من أشار إلى شرف اللغة، بل هي صفة استفاض العلماء في ذكرها وعقدوا الكتب والرسائل في فضل العربيّة وتعليمها وتعلُّمها، والحفاظ عليها من الفساد واللحن. ثمّ إنّ هذا التشريف الراسخ في نفوس أهل اللغة دفعهم إلى وضع العلوم العربيّة من نحوٍ وصرفٍ في سبيل فهم أحكام الشريعة وصون الدين؛ لأنَّ الشرف ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالعربيّة التي نزل بها القرآن الكريم.

---

[٢٨٧] انظر/ نفسه، ٢/٤١٢-٤٣٥.

[٢٨٨] انظر/ نفسه، ٢/٤٣٥.

وقد حصل التجديد مع ابن جنّيّ في أن جمع هذه المصطلحات والظواهر تحت غطاء الحكمة، لانّه ردَّ كلّ ظاهرة شاذّة أو غير شاذّة، مستعملة أو مرذولة، شائعة أو متروكة، إلى حكمةٍ عرفها العربيّ حين تكلّم. فيقول على سبيل المثال: "ما أودعته هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمة"[٢٨٩]؛ وهو يصف اللغة بالـ"الشريفة" في كثير من المواضع.[٢٩٠]

ويقرَّر هذا كثير من العلماء اللاحقين لابن جنّيّ، كأبي منصور الثعالبي (تـ ٤٢٩هـ) الذي ذكر في مقدّمته ما يلي: "من أحبَّ الله تعالى أحبَّ رسولَه محمّدًا صلّى الله عليه وسلَّم، ومن أحبَّ الرسول العربيَّ أحبَّ العرب، ومن أحبَّ العرب أحبَّ العربيّة التي بها نزل أفضل الكُتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحبَّ العربيّة عُنِيَ بها، وثابر عليها، وصَرَف هِمَّته إليها".[٢٩١]

وممّا يدلُّ على الشرف أيضًا استعمال ابن جنّيّ مصطلحات وعبارات من مثل:

- ميزة وبصيرة (الخصائص ٧٧/١).
- التلطُّف والملاءَمة (١٢٧/٢).
- سرّها وطلاوتها الرائقة [أي العربيّة] (١٢٧/٢).
- التنويه بها [أي العربيّة] (٢١٨/١).
- تحصين المعنى وتشريفه (١٥١/١).
- تكثر إعظام هذه اللغة الكريمة من أجله (١٤١/٢).

---

[٢٨٩] *الخصائص*، ابن جنّيّ، ١/١.

[٢٩٠] انظر: *الخصائص*، ابن جنّيّ، ١٨/١-٧٨-٢١٨؛ ٥/٢-١١٥-٢٢١؛ ٢٤٨/٣.

[٢٩١] *فقه اللغة وسرّ العربيّة*، الثعالبيّ، المقدّمة.

- أشرف فصول العربيّة (٢١٦/١).
- عناية العرب بألفاظها (٢١٦/١).
- الاستحسان (٢١٦/١).
- موضع من العربيّة لطيف (١١٠/٢).
- فصل من العربيّة حسن يدعو إلى الأُنس بها (٣١٢/٢ و١١٣/٣ و٢٦٧/٣).
- فصل من فصول العربيّة طريف، حسن (٤٧٥/٢).
- موضع عظيم شريف (٦٧/١).

٤. ***حُسن الصنعة***: اعتمد ابن جنّيّ منهجًا واضحًا في مصنَّفه، جاعلًا لكلّ علّةٍ سببًا. وقد يكرّر العلّة الواحدة في مواضع متفرّقة من الكتاب توكيدًا لها؛ ذلك أنّه يكرّر الأفكار، ويأتي بالمصطلحات مترادفةً ويستفيض في شرحها وضرب الشواهد عليها لأنّ ذلك في النفوس أوقع وأشدُّ برهانًا على شرف اللغة وحكمتها.

ومن أبرز المصطلحات التي يتوقّف عندها قارئ الخصائص مصطلح الصنعة أو الصناعة. وهو مصطلح يتّصل بمفهوم الحكمة اتّصالًا وثيقًا، جاء به ابن جنّيّ اثباتًا وبُرهانًا عليها. والصَّناعةُ: "حِرْفةُ الصانِع، وعمَلُه الصَّنْعة. والصِّناعة: ما تَسْتَصْنِعُ من أمر"،[٢٩٢] وهي "الطَّريقة المنظَّمة الخاصَّة التي تتَّبع في عمل يدويّ أو ذهنيّ"،[٢٩٣] لذلك دلّت على الحرفيّة والدقّة التي تمتّع بها أهل الصنعة، وهم العرب الأقحاح

[٢٩٢] انظر: *اللسان*، ابن منظور، مادّة (صنع).

[٢٩٣] انظر: معجم *اللغة العربية المعاصرة*، أحمد مختار عمر، (صنع).

ومن جاء بعدهم من العلماء الذين استنبطوا أصول الصنعة اللغوية من أفواه الأعراب، وأبانوا عن قدرتهم في التعامل مع العربيّة التي تشبه الصنعة من حيث إنها تحتاج إلى الذكاء والموهبة والمقدرة والإتقان.

والصنعة عند ابن جنّيّ لها قوانين تُعرف بها، وتوجب على أصحابها أحكامًا ومعاييرًا، مَن التزم بها صحّت صنعته وإلّا أدّى ذلك إلى فسادها. وقد عبّر المصنِّف عن ذلك مُستعملًا عبارات من مثل:[٢٩٤] "عارٍ من الصنعة/ليس عاريًا من الصنعة"؛ "وفيّنا الصنعة حقّها"؛ "جهة الصنعة/طريق الصنعة"؛ "تؤدّي الصنعة/تُصيّر بها الصنعة إلى كذا"؛ "قوانين الصنعة/على سِمْت الصنعة"؛ "وجوب الصنعة"؛ "توجبه الصنعة/يرجع بالصنعة"؛ "إفساد الصنعة/صحّة الصنعة".

وغالبًا ما أرفق ابن جنّيّ مصطلح "الصنعة" بصفةٍ ملازمة له، وهي "الحُسن" وما يأتي في معناها من "اللطافة" و"القوّة" و"العَظَمة" و"الأُنس" و"الطرافة". وقد استعملها —أي حُسن الصنعة— ليعلّل كلّ ظاهرة خرجت عن المألوف؛ فإن تباعدت ظاهرةٌ من الظواهر، ردَّها إلى "حُسن الصنعة" و"لطافة الحسّ" الذي يحمله صاحب السليقة العربيّة. ومن ذلك قوله مثلًا:[٢٩٥] "وفيه من لُطْف المأخذ وحُسْن الصنعة"؛ "رُدَّ بلطف الصنعة والتأويل إليه"؛ "ونيطت به [أي اللغة] من علائق الإتقان والصنعة"؛ "صنعة طريفة"، "وتُسلّم لعِظم الصنعة فيه"؛ "لم يألُ فيه نُصحًا وإحكامًا وصنعةً وتأنيسًا"؛ "والصنعة في تصريفها طويلة حَسَنة"؛ "مُحسّة لقوّة

---

[٢٩٤] انظر: مصطلح "الصنعة" في: الخصائص ١/٢٣-٤٠-١٠٥-١٨٤-٢٣٢-٢٣٣-٢٤٤-٢٤٩-٢٧١-٢٧٥-٢٨٩-٢٩٠-٢٩١-٣٠٨-٣٤٤-٣٥٥-٣٩٤-٤٩٥-٤٢٢-٤٢٧-٤٣٤-٤٤١-٤٥٠-٤٥٢-٤٥٧-٤٥٨-٤٥٩-٤٧٢-٤٧٤-٤٩٤-٥٠٥-٥٠٧-٥٠٨-٥٠٩-٥١٠-٥١٤-٥١٨؛ ٣/٨٦-٩٩-٢٠٣-٢٠٧-٢٤٤.

[٢٩٥] انظر: نفسه، ١/٣٦٢؛ ٣/٧٧؛ ٣/١١٣؛ ٢/١٢٦؛ ١/١؛ ١/٣٣٤؛ ١/٤٩٠؛ ١/٤٩١؛ ١/٢٥٦ على الترتيب.

الصنعة"؛ ناهيك بالباب الذي أفرده للتعليل بحُسْن الصنعة وعنوانه "باب في قلب لفظ إلى لفظ بالصنعة والتلطُّف لا بالإقدام والتعجرُف"،[٢٩٦] وباب آخر في "ملاطفة الصنعة".[٢٩٧]

وهو تارةً يشير إلى "حُسن الصنعة" بشكلٍ مباشر، كما بيَّنّا، وتارةً أُخرى يضمِّن معناه تضمينًا في كلامه[٢٩٨] فيورد قوانين الصنعة الحسنة وما تختصّ اللغة به من "الأسرار" كـ"التَّأتّي" و"التلطُّف" و"ضمّ المعاني والملاءمة بينها" و"فقاهة النفس ونصاعة الفكر" والتفكّر بـ"عَظمة" اللغة و"شرف" مواضعها.

ومن الدلائل على أهميّة مفهوم حُسن الصنعة في الخصائص أنّ ابن جنّيّ يصفُ كيف أن العرب اهتمّت في صياغة كلامها وأتقنت صنعتها فلم تُغفل اللفظ على حساب المعنى، بل ساوت بينهما وجعلت الواحد مكمّلًا للآخر، "ليكون ذلك [أي العناية باللفظ] أوقع لها في السَّمع، وأذهبُ بها فى الدلالة على القصد"،[٢٩٩] وممّا يدلُّ على ذلك هذا المثل المفصَّل: "اعلم أن هذا الباب من أشرف فصول العربيّة، وأكرمها، وأعلاها، وأنزهها. وإذا تأمّلته عرفت منه وبه ما يؤنِّقُك، ويذهبُ في الاستحسان له كلّ مذْهَب بك. وذلك أن العرب كما تُعْنَى بألفاظها فتُصلحها وتهذِّبها وتراعيها، وتلاحظ أحكامها، بالشِّعر تارة، وبالخُطَب أُخرى، وبالأسجاع التي تلتزمها وتتكلَّف استمرارها، فإنَّ المعاني أقوى عندها، وأكرمُ عليها، وأفخم قدرًا فى نفوسها.

---

[٢٩٦] نفسه، ٤٥٦/١.

[٢٩٧] نفسه، ١٠٢/٢.

[٢٩٨] للتوسّع في تضمين "حُسن الصنعة" انظر مثلًا : الخصائص ٦٧/١-٧٧-١٥١-٢١٦-٢٣٩؛ ١١٠/٢-١٢٧-١٤١-٣١٢-٤٧٥؛ ٢٦٧/٣-٢٦٩-٣٢٢-٣٣١.

[٢٩٩] نفسه، ٢١٦/١.

فأوّل ذلك عنايتها بألفاظها. فإنَّها لمّا كانت عنوان معانيها، وطريقًا إلى إظهار أغراضها، ومراميها، أصلحوها ورتَّبوها، وبالغوا في تحبيرها وتحسينها".[٣٠٠]

نستنتج أنّ "حُسن الصنعة" تعكسُ حكمة اللغة، ذلك أنّ المصنِّف حين يردُّ مسألةً أو ظاهرةً إلى "حُسن الصنعة" و"لطافة التأويل" يعكس في أذهان القرّاء مباشرةً صورة الحكمة التي تحملها اللغة وأهلها. فإحسان الصنعة وإتقانها يستبطنُ معرفةً في تقدير الأمور وجعل الأشياء في نصابها وقوامها، وهذا يتطلَّب ذكاءً وحكمةً وحِنكةً من أصحاب اللغة في التعامل مع صنعتهم (لغتهم) التي "أنعم" الله عليهم بها.

جيم. تجلّيات الحكمة في الأصوات والألفاظ وأدوات التحليل النحويّ

أصبح جليًّا اعتقاد ابن جنّيّ أنّ المتكلّم العربيّ، صاحب السليقة، لا يصدرُ في كلامه عن اعتباط. أي أنّه لا يستخدم المفردات والتراكيب كيفما اتّفق، وإنّما يصدر عن وعي لدقائق اللغة وتفاصيلها، مستعملًا حكمته التي هداه الله إيّاها، ليفهم لغته ويقبلها بحسّه اللطيف وطبعه.

والحديث في هذا الموضع عن تجلّيات الحكمة التي أشار إليها ابن جنّيّ —على نحوٍ مباشر أو غير مباشر— في دقائق اللغة من أصوات ومفردات وتراكيب وأدوات النحويّة وأسلوب وصنعة وظواهر لغويّة مختلفة. وهو في صنيعه هذا يجعل فروع اللغة —على اختلافها— مشتركةً في كونها ترتبط بالحكمة التي اعتبرها مرجعَ العربيّ ودليلَه في الكلام.

وتَحْسُن قِسمة البحث هنا إلى ما يتّصل بالأصوات والألفاظ، وإلى ما يتعلّق بأدوات التحليل النحويّ من تعليل وقياس.

---

[٣٠٠] نفسه.

١. *الأصوات والألفاظ*

عُرف ابن جنّيّ بدراسته المفصّلة لعلم الأصوات، فربط جَرس الأصوات بمعاني الألفاظ. كما أقام رابطًا بين اختلاف ترتيب الحروف ومعنى الكلمة ليجانس بين جَرس الحروف والمعنى الذي تفيده. من ذلك مثلًا ترتيب الحروف بحسب الأحداث المعبَّر عنها، فجُعِل الحرف الأوّل مجانسًا لأوّل الحدث، والحرف الأوسط مجانسًا لأوسط الحدث، والحرف الأخير مجانسًا لآخر الحدث كنحْوِ "بحث: فالباء لغلظها تُشْبه بصوتها خَفقة الكفّ على الأرض، والحاء لصَحلها تشبه مخالب الأسد وبراثِن الذئب ونحوهما إذا غارت في الأرض، والثاء للنفثِ، والبث للتراب"؛ ومنه أيضًا قولهم "شدّ" فالشين تشبه بالصوت "أوّل انجذاب الحبل قبل استحكام العَقْد، ثمّ يليه إحكام الشدّ والجذب، وتأريب العَقْد فيعبّر عنه بالدال التي هي أقوى من الشين، ولا سيّما وهي مدغمة، فهو أقوى لصنعتها وأدلّ على المعنى الذي أريد بها".[٣٠١]

ونتج عن ذلك مصطلحان هما "إمساس الألفاظ أشباه المعاني" و"تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني". وإلى ذلك فإنّ أكثر ما عُرف عن ابن جنّيّ في علم الأصوات —إلى جانب الخصائص— جاء في كتابَيْ "سرّ صناعة الإعراب" و"المُنصف".

والواقع أن ابن جنّيّ انطلق من إشارات قد سبقه الخليل وسيبويه في التنبيه عليها.[٣٠٢] إلّا أنّه انطلق من تلك الإشارات فذهب مذهبًا جديدًا في دراسة الأصوات، وأشار هو نفسه إلى ذلك في غير موضع، منها قوله:

---

[٣٠١] نفسه، ١٦٢/٢-١٦٣.

[٣٠٢] والدليل على ذلك قوله مثلًا في مقدّمة "باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني": "اعلم أن هذا موضع شريف لطيف، وقد نبّه عليه الخليل وسيبويه" (الخصائص ١٥٤/٢). كذا يستشهد بكلاميهما ثمّ يعلّق قائلًا: "ووجدتُ أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سِمْت ما حداه، ومنهاج ما مثّلاه" (الخصائص ١٤٥/٢-١٥٥). ويقول أيضًا: "فهذا على سِمْت الصنعة التي تقدَّمت

"وما علمتُ أنّ أحدًا من أصحابنا خاض في هذا الفن هذا الخوض ولا أشبعه هذا الإشباع".[٣٠٣] ولعلّ من أبرز المباحث التي "أشبعها" المصنِّف دراسةً وتمثيلًا هي الآتية: الفرق بين الصوت والحرف؛ وتشبيه الحلق بالآلات الموسيقيّة؛ واشتقاق الصوت والحرف؛ والصوامت والصوائت؛ والعلل وعلاقتها بالأصوات؛ وخصائص كلّ صوت من حروف المعجم؛ وعلاقة اللهجات بالأصوات؛ وعلاقة الإعراب بالأصوات؛ والتقديم والتأخير في حروف الكلمات وتأثيرهما في الصوت؛ وعلاقة الأفعال بالأصوات؛ والإعلال والإدغام والإبدال؛ والأصوات وعلاقتها بالمعنى؛ وزيادة المبنى الصوتيّ وأثره في زيادة المعنى؛ وغيرها من المباحث التي تصلح لأن تُشكّل دراسةً منفردة.

ولعلّ من المفيد أن نسأل هنا عن علاقة الحكمة بعلم الأصوات؛ بمعنًى أوضح: كيف أظهر ابن جنّيّ حكمة اللغة في مقام الأصوات؟

يصرّح ابنُ جنّيّ في خاتمة باب "تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني" بأنّه سيلحقه بابًا أشدّ دلالة على حكمة الله سبحانه فيقول: "ونحن نُتبع هذا الباب بابًا أغرب منه وأدلّ على حكمة القديم سبحانه وتقدّست أسماؤه، فتأمّله تحظَ به بعون الله تعالى"،[٣٠٤] وهو كان قد ذكر في موضع آخر أنّ الله قد هدى العرب حكمةَ هذا العلم الكريم،[٣٠٥] فكأنها إشارة غير مباشرة إلى حكمة أهل اللغة أيضًا.

في رأي الخليل وسيبويه، إلّا أنّ هذه أغمض من تلك. غير أنّها وإن كانت كذلك فإنّها منقولة عنها ومعقودة عليها". (الخصائص ١٥٦/٢)

[٣٠٣] *سرّ صناعة الإعراب*، ابن جنّيّ، ٥٦/١.

[٣٠٤] انظر: *الخصائص*، ابن جنّيّ، ١٥٤/٢.

[٣٠٥] انظر: نفسه، ١٩١/١.

ثمّ إنّ العرب قد جعلت الألفاظَ عبارةً ودليلًا على المعنى، فاهتمّت بألفاظها وجعلتها أقرب إلى المعنى، "فكلّما ازدادت العبارةُ شبهًا بالمعنى كانت أدلّ عليها وأشهد بالغرض فيه".[٣٠٦] وذهب الخليل وسيبويه إلى ذلك، فالعرب توهّمت في صوت الجُندب استطالة فقالوا "صرّ الجُندب" وتوهّمت في صوت البازي تقطيعًا فقالوا "صرصر البازي".[٣٠٧] ونقل عن سيبويه أيضًا أن المصادر التي جاءت على وزن "فَعَلان" تأتي بمعنى الاضطراب والحركة، مقابلًا بذلك توالي الحركات في "فَعَلان" بتوالي حركات الأفعال كنحو قولنا: نَقَزان، غَلَيان، غَيَثان.[٣٠٨] أما الجديد فهو ما استنتجه ابنُ جنّيّ، قياسًا على سابِقَيْه، من أن الأوزان الرباعيّة المضعّفة تأتي بمعنى التكرير نحو: الزعزعة والقلقلة والصلصلة والقعقعة والجرجرة؛ والوزن "فَعَلى" في المصادر والصفات يأتي بمعنى السرعة نحو: الهَشَكَى والجَمَزَى والوَلَقى؛ فجعلوا تكرار الأحرف دليلًا على المعنى المكرّر كالقلقلة، وتوالي الحركات دليلًا على حركة الفعل كالغَيَثان،[٣٠٩] وجعلوا تكرير العين دليلًا على تكرار الفعل فقالوا: كسَّر، قطَّع، فتَّح، غلَّق.[٣١٠]

ومن ذلك أيضًا أن العرب اختارت الحروف "الرخوة" لمعنى"الرطب" والحروف الصلبة لمعنى "اليابس" كقولهم: خضم وقضم؛ فالخَضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء والقَضْم للصلب اليابس. ومنه قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣] أي تزعجهم وتقلقهم وهذا في معنى تهزُّهم هزًّا،

---

[٣٠٦] نفسه، ١٥٦/٢.

[٣٠٧] نفسه، ١٥٤/٢.

[٣٠٨] نفسه.

[٣٠٩] انظر: نفسه، ١٥٤/١-١٥٥.

[٣١٠] نفسه، ١٥٧/٢.

إلّا أن الهمزة —وهي أقوى من الهاء— جاءت دليلًا على معنًى "أعظمُ في النفوس من الهزّ، لأنّك قد تهزُّ ما لا بال له كالجذع وساق الشجرة ونحو ذلك"، فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين.[٣١١] ومن ذلك "سدَّ" و"صدَّ"، إذ جعلوا الحرف الأقوى —وهو الصاد— للمعنى الأقوى وهو الصدُّ، لأن الصدّ جانب الجبل والوادي والشِعْب، أما السدُّ فيكون للباب أو لثُقب كوزٍ أو رأس قارورة؛[٣١٢] ومنه أيضًا "القَسْم" و"القَصْم"، فالقَصْم أقوى فِعلًا من القَسْم لذا خُصّص بالأقوى وهو الصاد.[٣١٣]

وعلاوةً على لمحه تقارب المعاني لتقارب الألفاظ، تنبّه ابن جنّيّ إلى أن الألفاظ تتقارب فتُستعمل في معنًى واحد، كاستعمال العرب تركيب "ج ب ل" و"ج ب ن" و"ج ب ر" بمعنًى واحد وهو الالتئام والتماسك "منه الجَبَل لشدّته وقوّته، وجَبُن إذا استمسك وتوقّف وتجمّع، ومنه جَبَرت العظم ونحوه أي قوّيته".[٣١٤]

وممّا يدلّ على حكمة العربية وعمق غورِها عنده أيضًا ما نقع عليه من مضارعة الأصول الثلاثة كنحوِ قولنا: "عصر" و"أزل" فالعين أخت الهمزة والصاد أخت الزاي والراء أخت اللام، وأزل الشيء إذا حبسه والعصرُ ضربٌ من الحبس.[٣١٥]

وقد تجاوز ابن جنّيّ عرض نماذج عن ظواهرَ صوتيّة وربطها بالمعنى إلى التعليل بها، كنَحوِ جذرَيْ: "ج و ع" و"ش ي أ" فالجيم أخت الشين، والواو أخت الياء، والعين أخت الهمزة؛ فنقول جاع يجوعُ وشاء

---

[٣١١] نفسه، ١٤٨/٢.

[٣١٢] نفسه، ١٦٣/٢.

[٣١٣] نفسه.

[٣١٤] نفسه، ١٥١/٢.

[٣١٥] نفسه.

يشاء، والجائع مريدٌ للطعام لا محالة، والإرادة هي المشيئة. ثمّ ينتقل المصنِّف من رابط المعنى إلى ما هو أبعد من ذلك فيعلِّل قائلًا: "ولهذا يقول المدعو إلى الطعام إذا لم يُجب: لا أريد ولست أشتهي ونحو ذلك".[٣١٦]

ويزخر الخصائص بأمثلة عن سَوْق العرب الحروفَ خدمةً للمعنى والغرض، تعكس بمُجملها لُطف الصنعة وحكمتها.[٣١٧] وقد أظهر المصنِّف كيف تداخلت الأصوات والمعاني لتتناسب مع قوّة الحركة وضعفها، وهو في كلّ موضع يُشير إلى أهل السليقة الذين عرفوا دقائق لغتهم فأنزلوا الحروف منازلها خدمةً لأغراضهم وبذلك تجلّت حكمتهم ووعيهم.

٢. *أدوات التحليل النحويّ*

تكلّم العربيُّ لغته بالسليقة والفطرة، حاملًا معرفته اللغويّة في فكره من غير علّة مُدْرَكة بالعقل بل بالسليقة والسجيّة —وهذا أدلُّ شيء على حكمة العربيّ كما قرّر ابن جنّيّ. ثمّ جاء علم النحو يستنبط الأحكام والقواعد من كلام العرب فتشكّلت معالم الصنعة التي عكست بدورها "نقاء" فكر العربيّ و"لُطف حسّه" وحكمته.

وجاء ابن جنّيّ بأدوات التحليل النحويّ —وتحديدًا العلّة والقياس— ليعكس ما هو أبعد من القواعد والأحكام، إذ من خلالها حاول سبر أغوار اللغة وإثبات لُطف دقائقها وبديع ظواهرها وإتقان صنعتها بالحُجّة والبُرهان. فبالقياس استقى النُحاة المادّة اللغويّة عن البُداة "الحُكماء" فقاسوا عليها وبنوا أحكام النحو وأُسسه.

---

[٣١٦] نفسه، ١٥٣/٢.

[٣١٧] يقول ابن جنّيّ في الخصائص ١٦٤/٢: "نعم، ومن وراء هذا ما اللُّطف فيه أظهر، والحكمة أعلى وأصنع. وذلك أنهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبَّر عنها بها ترتيبَها، وتقديم ما يُضاهي أوّل الحدث، وتأخير ما يضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي أوسطَه، سوقًا للحروف على سَمْت المعنى المقصود، والغرض المطلوب".

أما العلّة فبِها تسوَّغ الظواهر اللغويّة وبها يتبيّن أن تلك الظواهر مردّها إلى الحكمة ولم تنشأ مصادفةً أو اعتباطًا.

٢-١. العلّة النحويّة:

لم يكن ابن جنّيّ أوّل مَن وضع العلّة في النحو العربيّ، ولم يتوخَّ التصنيف في حالات الرفع والنصب والجرّ فهو —كما صرَّح— مسبوق إلى ذلك؛ إنّما عُنيَ بما هو أعمق من التعليل لتلك الحالات، وبحث فيما وراء العلّة نفسها للوصول إلى عقليّة العربيّ وتركيبته. كذا سعى لمعرفة ما حداه إلى اختياره هذا الوجه من الكلام دون الآخر؛ فما ردَّ مسألةً ولم يرذل شاذًّا، بل استنبط لكلّ ظاهرة علّةً تسوّغ الوجه التي هي عليه، وتعكس حكمة العرب في اختياراتها، فالأسباب موجودة والحكمة منها معروفة،[٣١٨] بخلاف الأحكام الشرعيّة، فالحكمة موجودة لكنّها لا تظهر دائمًا، أما في الأحكام النحويّة فالحكمة موجودة وظاهرة دومًا[٣١٩] إلّا أن تكون من المسموع فهُنا ندخل في باب السماع والقياس. وقد قرّر السيوطيّ ذلك في كتابه فيض نشر الانشراح :"إذا عجز [أي المتفقّه والمتكلّم] عن تعليل الحكم قال هذا تعبُّديّ، وإذا عجز النحويّ عنه قال هذا مسموع".[٣٢٠] ويشير ابنُ جنّيّ أن العلل النحويّة أقربُ إلى علل المتكلمين منها إلى علل المتفقّهين، فكأنّما أوقع العلل

---

[٣١٨] *الخصائص*، ابن جنّيّ، ١/٥٢-٥٣.

[٣١٩] ودليل ذلك ما ذكره ابن جنّيّ في الخصائص: "وبعد فقد صحَّ ووضح أنّ الشريعة إنّما جاءت من عند الله تعالى ومعلومٌ أنّه سبحانه لا يفعل شيئًا إلّا ووجه المصلحة والحكمة قائمٌ فيه وإن خَفِيت عنّا أغراضه ومعانيه، وليست كذلك حال هذه اللغة، ألا ترى إلى قوّة تنازع أهل الشريعة فيها وكثرة الخلاف في مباديها ولا تقطع فيها بيقين ولا من الواضع لها ولا كيف وجه الحكمة في كثير مما أريناه آنفًا من حالها وما هذه سبيله لا يبلغ شأو ما عرف الآمر به —سبحانه وجل جلاله— وشهدت النفوس واطّردت المقاييس على أنّه أحكم الحاكمين سُبحانه" (١/٥٣-٥٤).

[٣٢٠] *فيض نشر الانشراح*، السيوطيّ، ص ٨٤٦.

النحويّة في منزلةٍ بين الاثنين،[٣٢١] وقوله هذا لا يعني أنّ العلل النحوية في "سِمْت" العلل الكلاميّة، بل هي أقربُ إليها من العلل الفقهيّة.[٣٢٢]

أمّا عن علاقة العلّة بالحكمة، فهو ما تنبّه إليه ابنُ جنّي من قول الخليل وسيبويه:[٣٢٣] فالعلّة موجودة لتُبِينَ الحكمة من اختيار العربيّ، وهي التي تشرح العملية العقليّة الحاصلة في ذهنه، فنتج عنها اختياره الخفّة أو اختياره استعمالًا دون غيره، كاستعمال الموافق للقاعدة تارةً أو استعمال ما شذّ عن بابه مَنْبَهةً على أصله تارةً أُخرى.

وقد خصّص ابن جنّيّ للعلة أبوابًا كثيرة، ناهيك بالعلل المتفرّقة في أغلب أبواب الخصائص وغيره، كالمُنصف وسرّ صناعة الإعراب. وإلى ذلك فالمصنّف حين يعلّل بالمنبهة على الأصل وبحُسن الصنعة التي تفرض وجهًا دون عن غيره، هو يعلّل بالحكمة أيضًا، لأن المنبهة وحُسن الصنعة من معاني الحكمة كما بيَّنّا. كما أنّه يعلّل بالحكمة مباشرة كما ورد في مسألة سَبْق الأسماء الأفعالَ من حيث الرُّتبة: "واستدللتُ

---

[٣٢١] يقول ابن جنّيّ في الخصائص: " اعلم أن علل النحويين أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل المتفقهين وذلك أنهم إنما يحيلون على الحس ويحتجون فيه بثقل الحال أو خفتها على النفس وليس كذلك علل الفقه لأنها إنما هي أعلام وأمارات لوقوع الأحكام وكثير منه لا يظهر فيه وجه الحكمة كالأحكام التعبدية بخلاف النحو فإن كله أو غالبه مما تدرك علته وتظهر حكمته". (١٤٤/١)

[٣٢٢] *الخصائص*، ابن جنّيّ، ٥٣/١.

[٣٢٣] راجع: ص ١–٢ من المقدّمة.

على ذلك بأن الحكمة قادت إليه".[٣٢٤] فهو إذًا يسعى إلى استخلاص الحكمة الكامنة في كلّ ظاهرةٍ لغويّة، اعتقادًا منه أن الحكمة في اللغة موجودة دائمًا بخلاف الفقه وعلم الكلام.[٣٢٥]

ومن أبرز الأبواب التي تُظهر الحكمة في اللغة ما عقده ابنُ جنّيّ في باب أن "العرب أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه إليها وما حملناه عليها"،[٣٢٦] وهو في هذا الباب يسعى إلى إثبات ثلاثة مبادئ صارت كالثوابت في منهجيّته التحليليّة:

- إظهار حكمة العرب و"سداد مقاصدها".
- إثبات أنّ الظواهر اللغويّة لم تنشأ اعتباطًا أو عن مصادفة، بل عن دراية وحكمة. [٣٢٧]
- تقبُّل كلّ ما جاء عن العرب من ظواهر شاذّة ولهجات مرذولة معتقدًا بمسوّغٍ وحكمةٍ في كلّ ما نطقت به.[٣٢٨]

---

[٣٢٤] *الخصائص*، ابن جنّيّ، ٣٥/٢.

[٣٢٥] من ذلك مثلًا ما أورده في مطلع باب "بقاء الحكم مع زوال العلّة": "هذا الموضع ربّما أوهم فساد العلّة، وهو مع التأمّل بضدّ ذلك" (الخصائص ١٥٩/٣).

[٣٢٦] انظر أيضًا: ص ٢٠ من هذا الفصل، الهامش رقم ٧٠.

[٣٢٧] ودليل ذلك مثلًا : "ولست تجد شيئًا ممّا علّل به القوم وجوه الإعراب إلّا والنفس تقبله والحسّ منطوٍ على الاعتراف به" (الخصائص ٥٢/١).

[٣٢٨] يعتقد ابن جنّيّ بوجود مسوّغ وعلّة وراء كلّ ظاهرة نحويّة حتى وإن غابت عنّا، فلم يقل كما جاء في الفقه —أي بوجود حكمة مغيّبة عن العباد— بل ردّ ذلك إلى تقصير الإنسان وبُعد نظره في أن يفهم ما قصد الأعراب بكلامهم؛ من ذلك قوله مثلًا: "إمّا أن تكون أنت قصَّرت عن استدراك وجه صحَّته" (الخصائص ٢٦/٢)، وقوله أيضًا: "لهذه اللغة أصولًا وأوائل قد تخفى عنّا وتقصرُ أسبابها دوننا كما قال سيبويه، أو لأنّ الأوّل وصل إليه علمٌ لم يصل إلى الآخر. فإن قلت: فهلّا أجزت

ومما يبدو من الحكمة في باب العلل النحويّة التعليلُ بالمنبهة؛[٣٢٩] من ذلك ما جاء في تعليل المعتلّ الخارج على أصله، إذ يرى ابنُ جنّيّ مثلًا أن "استحوذ" خرج عن أصله تنبيهًا على باقي الباب ومحافظةً على "إبانة الأصول المغيَّرة" وفي هذا "ضربٌ من الحكمة في هذه اللغة العربيّة".[٣٣٠] ومنه أيضًا ما جاء في علّة فكّ الإدغام في الأفعال "ضنِنوا"، "لَحِحَت"، "ضَبِب"، "ألِلَ" التي خرجت شاذّة على أصل الباب لتنبّه أنّ أصل "قرَّت: قرِرَت" و"حلَّ: حَلَلَ" ونحوه.[٣٣١]

ومن الحكمة أيضًا التعليل بحُسن الصنعة و"مُلاطفة الصنعة"،[٣٣٢] فالمصنِّف يرى أن كلّ ما خرج عن النظام اللغويّ المألوف لا بُدّ من علّة جعلته على ما هو عليه. مثال ذلك قوله: "ترى العرب قد غيّرت شيئًا من كلامها من صورة إلى صورة، فيجب حينئذٍ أن تتأتّى لذلك وتُلاطفه، لا أن تخبطه وتتعسفه"؛[٣٣٣] وغيرها من الأمثلة التي استفضنا في عرضها في المباحث السابقة.

أيضًا أن يكون ما أوردته في هذا الموضع شيئًا اتّفق وأمرًا وقع في قيل: في هذا حكم بإبطال ما دلّت الدلالة عليه من حكمة العرب التي تشهد بها العقول وتتناصر إليها أغراض ذوي التحصيل. فما ورد على وجهٍ يقبله القياس وتقتاد إليه دواعي النظر والإنصاف حُمل عليها ونسبت الصنعة فيه إليها. وما تجاوز ذلك فخفي، لم تُوءسَ النفس منه ووُكِّل إلى مصادقة النظر فيه، وكان الأَحرى به أن يتَّهم الإنسان نظره ولا يخف إلى ادعاء النقض فيما قد ثبت الله أطنابه وأحصف بالحكمة أسبابه" (الخصائص ١٦٤/٢).

[٣٢٩] للتوسّع في الأمثلة، انظر القسم ٢ من هذا الفصل: معاني الحكمة في الخصائص (المنبهة).

[٣٣٠] *المُنصف*، ابن جنّيّ، ٢٧٧/١.

[٣٣١] *الخصائص*، ابن جنّيّ، ١٦٣/١.

[٣٣٢] للتوسّع في الأمثلة، انظر القسم ٢ من هذا الفصل: معاني الحكمة في الخصائص (حُسن الصنعة).

[٣٣٣] *الخصائص*، ابن جنّيّ، ٤٧٠/٢.

ومن العلّة التي دلّت على حكمة العرب ما أورده ابن جنّيّ في حمل الأصل على الفرع، وتحديدًا في حمل المصدر (الأصل) على الفعل (الفرع)، ما نصّه: "فهل بقيَ في وضوح الدلالة على إيثارهم تشبيه الأشياء المتقاربة بعضها ببعض شُبهة!".[٣٣٤] ومنه أيضًا تعليله ما خرج عن المألوف كتأنيث المذكّر وتذكير المؤنّث وتصوّر المعنى الواحد في الجماعة والجماعة في الواحد، فهذا "غَوْرٌ من العربيّة بعيد ومذهبٌ نازح فسيح" جاء في القرآن وفصيح الكلام؛ ثمّ يعقد بابه في "الحمل على المعنى"، لنرى أن المصنّف قد ردّ الظواهر غير المألوفة إلى فصاحة العرب وسعة اللغة. ومنه أيضًا تعليل الظواهر اللغويّة بالخفّة، فالعربُ رفعت الفاعل لقلّته ونصبت المفعول لكثرته، والضمّة أثقل من الفتحة، فقلّ في كلامهم ما يستثقلون وكثُر في كلامهم ما يستخفّون، وهذا "الذي فعلوه أحزم".[٣٣٥] وجه العلّة إذًا في أن جاء الفاعل مرفوعًا والمفعول به منصوبًا طلبُ الخفّة في منطق العرب، إذ إنهم تكلّموا بسليقتهم واختاروا الخفّة بطبعهم فجاء كلامهم على هذا الوجه.

وأشرنا مُسبقًا إلى أن ابن جنّيّ لا يردُّ ما استُقبح في الاستعمال، كالفصل بين قد والفعل في الضرورة الشعريّة، وهي ضرورةٌ مستَقْبحة. فالشاعر، إن عمَدَ إلى هذه الضرورات المُستَقبحة، يُعدُّ ضعيف اللغة ومقصّرًا في اختياره وجه الفصاحة في شعره. إلّا أنّ ابن جنّيّ يلتمس العلل للشاعر في مثل هذه الحالات، وهو عنده كالفارس الذي ركب فرسًا جمُوحًا بلا لجام، أو كالفارس الذي ورد الحرب الطاحنة بلا احتشام، فهو

---

[٣٣٤] نفسه، ١/١١٤.

[٣٣٥] نفسه، ١/٥٠.

وإن كان مُلامًا على عنفه وتهوّره —أي استخدام المُسْتقبح— مشهودٌ له بالشجاعة لأنه أقدم على ما أقدم مُدركًا لهلاكه وبُعده عن النجاة دون السلاح أو اللجام و "إدلالًا بقوة طبعه ودلالةً على شهامة نفسه".[٣٣٦]

يظهر جليًّا من خلال ما سبق أنّ السبب في تعليل ابن جنّيّ للشاذ يكْمُن في رغبته بأن يبرهن أنَّ اللغة تخضع لنظام واحد مُتْقَن ومُحْكَم تتعاضدُ أطرافه ولا تتعارض. وهو بهذا التعليل قد رسم منهجه في الدراسة النحويّة واللغويّة وتعمّق في تعليل كلّ مسألة وأكثر من الاحتمالات مُكثرًا الدلائل والحجج التي تُثبت نظرته إلى العربيّة.

٢-٢. القياس

القياس عمليّة ذهنيّة يقوم بها الإنسان مُعتمدًا على حدسه، يَقيس بها على ما سمِعَه ليتمكّن من التعبير عن حاجاته التي تتجدّد وتتبدّل مع مرور الوقت، وهو "حَمْلُ غير المنقول على المنقول إذا كان في معناه"[٣٣٧] كما قرّره ابن الأنباريّ. وقد شبّه هذا الأخير القياس النحويّ بالقياس الفقهيّ لأنّهما "معقول من منقول"[٣٣٨]. فالقياس إذًا استخراج القواعد من المادّة اللغويّة التي سُمعت عن أصحاب السليقة، وبالتالي اتّساع اللغة بالإضافات التي أدخلها القياس على لغة العرب عملًا بقاعدة أنّ "ما قيس على كلام العرب فهو عندهم من كلام العرب"، وهذا من قوّة القياس.[٣٣٩]

---

[٣٣٦] نفسه، ٣٩٤/٢.

[٣٣٧] *الإغراب في جدل الإعراب*، ابن الأنباريّ، ص ٤٥.

[٣٣٨] *فيض نشر الانشراح*، السيوطيّ، ص ٢٠٢.

[٣٣٩] *الخصائص*، ابن جنّيّ، ١١٥/١.

ويرى ابنُ جنّيّ القياسَ من المواضع "الشريفة" في اللغة التي تحملُ من الغموض واللطافة ما يجعل التساند إلى القياس "مقوٍّ" و"مُجْدٍ"،[٣٤٠] حتى بلغ حدّ القول بأنّ "مسألة واحدة في القياس أنْبَل وأنبَه" من كتاب لغة عند عيون الناس"،[٣٤١] كذا نقل عن أستاذه الفارسيّ قوله: "أُخطِىء في خمسين مسألة في اللغة، ولا أُخطِىء في واحدةٍ من القياس".[٣٤٢]

فالقياس من الأدلّة الأولى لاستنباط الأصول النحويّة، لأنّ المادّة المسموعة عن الأعراب محدودة وغير كافية للتعبير عن جميع المعاني والأغراض، فلَزِم اللجوء إلى القياس لوضع القوانين والأحكام النحويّة واللغويّة.

إلّا أن السماع قد يتعارض والقياس، ولم يُغفل ابن جنّيّ مثل هذا الاحتمال، وبطبيعة الأمر قدَّم ما سُمع عن أهل السليقة على القياس لأنّه الأصل، فيقول: "واعلم أنّك إذا أداك القياس إلى شيء ما ثمّ سَمِعت العرب قد نطقت فيه بشيء آخر على قياس غيره، فدَع ما كنت عليه إلى ما هم عليه. فإن سَمعت من آخر مثل ما أجزتَه فأنت فيه مخيَّر: تستعمل أيّهما شِئت".[٣٤٣] ويشير ابن جنّيّ في هذا السياق إلى ما سُمع عن العرب لكنّه شذَّ عن القاعدة المَقيس عليها، فاللازم قبول ذلك دون القياس عليه، كنَحو: "استَحوَذ" الذي خرج

---

[٣٤٠] انظر : "باب في أن ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب"، *الخصائص*، ابن جنّيّ، ٣٥٨/١.

[٣٤١] *الخصائص*، ابن جنّيّ، ٩٠/٢.

[٣٤٢] نفسه.

[٣٤٣] نفسه، ١٢٦/١.

عن أصل بابه؛ فاستُعمل الفعل بالهيئة التي جاء عليها من غير أن يُقاس عليه، فلا يُقال في استقام: استقوَم، ولا في استباع: استبيَع.[٣٤٤]

وهنا نقطة التقاء بين القياس والسماع والعلّة؛ فالسماع ما سُمع عن العرب —وكلامهم كلّه حُجّة[٣٤٥]— والقياس ما قِيس على ما سُمع، وهو أيضًا حُجّة، ثمّ جاء ابن جنّيّ بالعلّة ليعلّل خروج "استحوذ" عن أصل بابه —أي عن القياس— لينبّه أن الفعل قد شذَّ منبهةً على الأصل. ونلحظ في كلّ موضع تجلّيات للحكمة: فكلام العرب —بحسب ابن جنّيّ— كلامٌ "فصيحٌ"، "لطيفٌ"، "شريفٌ"، "حكيم"، والعربُ قومٌ عرفوا بـ"حُسن الصنعة" و"لُطف" التدبير والتعبير؛ وذهب أيضًا إلى أن القياس من "أشرف" و"أنبل" مواضع اللغة وبه بُرهان سِعتها؛ والشاذ جاء منبهةً على الأصل، والعلّة جاءت لتبيّن وجه الحكمة في الظواهر اللغويّة... وصفوة القول أنّ ابن جنّيّ جمع العناصر اللغويّة، وفي مقدّمها الأدوات النحويّة من قياس وسماع وتعليل في عقد واحدٍ تنصبُّ جميع عناصره في مصبِّ الحكمة.

---

[٣٤٤] نفسه، ١١٨/١.

[٣٤٥] انظر: نفسه، ١٢/٢.

الفصل الخامس

الخاتمة

يظهر لنا في خلاصة هذا البحث مجهود ابن جنّيّ في بناء نظامٍ جديدٍ يسعى فيه إلى دراسة اللغة وظواهرها، مرتكزًا على مبدأ الربط بين العلوم. فالنحو واللغة والشعر وغيرها مترابطة فيما بينها "كالدار مُحكمةِ البناء"، ولذا نراه يستعين باللغة مثلًا في المسائل النحويّة. كذلك جعل الرابط بين هذه العلوم مبدأ الحكمة الذي تعقّبه في مصنَّفه، حتى لا يكاد يخلو باب من الإشارة إلى الحكمة إمّا بمصطلحاتها المباشرة، أو بتضمينها في المسائل اللغويّة والنحويّة. وهو في صنيعه هذا يجعل فروع اللغة —على اختلافها— مشتركةً في كونها ترتبط بالحكمة التي اعتبرها مرجعَ العربيّ ودليلَه في الكلام. ولم يكن ابن جنّيّ أوّل من تنبّه إلى الحكمة الكامنة في اللغة، بل سبقة إلى ذلك الخليل وسيبويه، غير أنه كان سبّاقًا في منهجه اللغويّ إذ درس اللغةَ وأصولها وظواهرها من منظور التعظيم والتشريف معتقدًا بحكمة واضعها.

وقد دعاه الشغف والتعظيم للعربيّة إلى رؤية اللغة من منظور متفرّد؛ ولم يكتفِ ابن جنّيّ بالكشف عن أسرار العربيّة ومعالجة ظواهرها المختلفة فحسب، بل أيقن أنها تتميّز بصفات انفردت بها عن سائر اللغات من "غموضٍ ودقّة وإتقان"، وتحمل في أغوارها "خصائص الحكمة" و"علائق الإتقان والصنعة". ومؤدّى هذه الرؤية أنه وقف على الدقائق اللغويّة دارسًا ومتأمّلًا؛ فأكثر من التعليل والتفسير مولِّدًا بذلك مصطلحات جديدة، إمّا متأثّرًا بالتأصيل الفقهيّ والكلاميّ، وإمّا لامحًا إشارات أستاذه الفارسيّ أو الخليل أو سيبويه، فوسّعها وبنى عليها نظريّة ومنهجًا جديدًا في استدلاله اللغويّ كالاشتقاق الأكبر وتصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني ونحوه. وقد التزم هذا المنهج في الكتاب كلّه، معتمدًا على أساسين اثنين:

الأساس الأوّل: هو اعترافه بحكمة أصحاب السليقة الذين أوتوا اللغة و"نفوسهم قابلة لها"، يتكلّمونها بالبديهة والفِطرة دون الرجوع إلى أصول موضوعة، فلا ينطقون إلّا بما يهجم على طبائعهم من معرفتهم اللغوية غير الواعية، مستعملين حكمتهم التي هداهم الله إيّاها وأنعم عليهم بها، ليفهموا لغتهم ويتقبّلوها بحسّهم اللطيف.

أما الأساس الثاني فيقوم على اهتمامه بالنحو —وهو الجهاز الواصف للغة الفطريّة— وربطه بالعلوم الأُخرى، وتحديدًا بمباحث فقه اللغة، وتسخير أدوات التحليل النحويّ خدمةً للمعنى في المقام الأوّل، ووصولًا إلى الكشف عن حكمة اللغة وأصحابها الذين ما وقع منهم فعل إلّا والدليل عليه موجود، ومَن لم يرَ الدليل فهو مقصِّر. لذا سعى ابن جنّيّ إلى استنباط جوانب الحكمة الواقعة في كلام العربي، وتعليل كلّ الظواهر اللغويّة حتّى وإن غابت العلّة، فنراهُ يستنبطها ويلتمس لها العلل ويردّها إلى لُطف الصنعة والتأويل. ولعلّ السبب في تعليل ابن جنّيّ للظواهر اللغويّة والنحويّة يعود إلى رغبته بأن يبرهن أنَّ اللغة تخضع لنظام واحد مُتْقَن ومُحْكَم تتكامل أجزاؤه.

وجديرٌ بالذكر أن مفهوم الحكمة لا يستقلّ بالضرورة بمصطلح يُمكن البحث عنه في المصادر، بل هو مفهوم إمّا أن يَكْمُن في الظواهر النحويّة واللغويّة، وإمّا أن يجيء معناه باستخدام المصطلح نفسه أو مصطلحات أُخرى كالمنبهة وحُسن الصنعة والشرف. وأكثر ما يعكس الحكمة من الظواهر النحويّة: ظاهرة التعليل التي ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالحكمة، حتّى إن الكشف عن العلّة صار نوعًا من أنواع بيان الحكمة. وقد قارب ابن جنّيّ الحكمة اعتمادًا على ثلاثة أُسس وهي: الاهتمام بالمعنى وتقديمه على اللفظ؛ وتفضيل العربيّة على سائر اللغات؛ والنزعة العربيّة والتصدّي للشعوبيّة.

وخلاصة القول أن ابن جنّيّ يتوسّل منهجًا متجدّدًا في مقاربة اللغة ويعتمد أسلوبًا تدريجيًّا للإقناع، متخيّرًا أفضل ما عنده فيضرب المثال الأنسب لكلّ مقام. ناهيك باقتران مقاربته للمظاهر اللغوية وبحثه عن خصائص اللغة بنيّة الكشف عن إعجابه بالعربيّة وقدرها ومكانتها ونسبة الحكمة إلى أصحابها. لذا نراه يُبين عن الحكمة بمصطلحاتها ومعانيها تارةً، ويُضمّن الحكمة تضمينًا في الظواهر اللغويّة من معاني وتعليل وقياس، تارةً أُخرى. وقد استخدم ابن جنّيّ أسلوبًا مشابهًا في مصنَّفاته الأُخرى —وفي طليعتها المُنصف وسر صناعة الإعراب. ومن المؤمَّل أن يستكمل الباحثون النظر في مفهوم الحكمة عند ابن جنّيّ في مصنَّفاته الأُخرى، بعد أن مهَّدنا لذلك بدراسة تفصيليّة لهذا المفهوم في كتاب الخصائص.

البيبلوغرافيا

أوّلًا: المصادر العربيّة

أبو الطيّب اللغويّ، عبد الواحد بن عليّ الحلبيّ. *مراتب النحويّين*. تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم. مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٥.

ابن الأنباري، أبو البركات عبد الرحمٰن بن محمّد. *أسرار العربيّة*. تحقيق فخر صالح قدارة. دار الجيل، بيروت، ١٩٩٥.

_____. *الإعراب ولمع الأدلة في أصول النحو*. تحقيق سعيد الأفغاني. مطبعة الجامعة السورية، دمشق، ١٩٥٧.

_____. *الإغراب في جدل الإعراب*. تحقيق سعيد الأفغاني. دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩١.

_____. *نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء*. تحقيق عطيّة عامر. المكفيست وويكسيل، ستوكهولم، ١٩٦٢.

ابن جنّي، أبو الفتح عثمان. *الخصائص*. تحقيق محمّد علي النجار. الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦-١٩٨٦.

_____. *سرّ صناعة الإعراب*. تحقيق حسن هنداوي. دار القلم، دمشق، ١٩٩٣.

_____. *المُنصف*. تحقيق عبد الله أمين وإبراهيم مصطفى. مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٧٣.

ابن السّراج، أبو بكر محمد بن السّري بن سهل. *الأصول في النحو*. تحقيق عبد الحسين الفتليّ. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥.

ابن سيده، أبو الحسن عليّ بن اسماعيل. *المُحكم والمحيط الأعظم في اللغة*. تحقيق حسين نصار ومصطفى السقا، معهد المخطوطات العربيّة، القاهرة، ١٩٥٨.

_____. المُخصَّص. تحقيق محمّد نبيل طريفي. دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٣.

ابن عساكر، عليّ بن الحسن. *تهذيب تاريخ ابن عساكر*. تحقيق عبد القادر بدران. المكتبة العربيّة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٢٩.

ابن عصفور، أبو الحسن عليّ بن مؤمن بن محمّد. *المُمتع في التصريف*. تحقيق فخر الدين قباوة. دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٨.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. *الصاحبيّ في فقه اللغة وسُنن العرب في كلامها*. تحقيق المكتبة السلفيّة. مطبعة المؤيّد، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩١٠.

ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم. *فضل العرب والتنبيه على علومها*. تحقيق وليد محمود خالص. منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٩٨.

ابن المعتز، عبد الله. *طبقات الشعراء*. تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج. دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٦.

ابن منظور، أبو الفضل محمّد بن مكرم. *لسان العرب*. تحقيق علي شيري. دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ١٩٨٨.

ابن النديم، أبو الفرج محمّد بن إسحق. *الفهرست*. تحقيق مصطفى الشويمي. الدار التونسيّة للنشر، تونس، ١٩٨٥.

الأشعريّ، أبو الحسن عليّ بن اسماعيل. *مقالات الإسلاميين وإختلاف المصلين*. تحقيق محمّد محي الدين عبد الحميد. مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٦٩.

البغدادي، عبد القادر بن عمر. *خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب*. تحقيق عبد السلام ومحمد هارون. دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٨١.

الثعالبيّ، أبو منصور عبد الملك بن محمّد. *فقه اللغة وسرّ العربيّة*. تحقيق ياسين الأيّوبيّ. المكتبة العصريّة، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠.

الجرجانيّ، علي بن محمد بن علي. *كتاب التعريفات*. دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٣.

الجُمَحي، أبو عبد الله محمد بن سلاّم بن عُبيد الله. *طبقات فحول الشعراء*. تحقيق محمود محمد شاكر. دار المدني، جدّة.

الجوهريّ، أبو نصر إسماعيل بن حمّاد. *تاج اللغة وصحاح العربيّة*. تحقيق أحمد عبد الغفور عطّار. دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩.

الزُّبيديّ، محمّد بن الحسن. طبقات *النحويّين واللغويّين*. تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٧٣.

الزجاجيّ، أبو القاسم عبد الرحمٰن بن إسحق. *الإيضاح في علل النحو*. تحقيق مازن المبارك. مكتبة دار العروبة، القاهرة، ١٩٥٩.

سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي. *الكتاب*. تحقيق محمد هارون. مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨-١٩٨٨.

السيرافي، أبو سعيد بن عبد الله بن المرزبان. *أخبار النحويّين البصريّين*. تحقيق طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي. نشره مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٣-١٩٦٦.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر. *الأشباه والنظائر*. تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمّد معوّض. دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩١.

_____. *الاقتراح في علم أصول النحو*. تحقيق محمد إسماعيل الشافعي. دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٨.

_____. *بُغية الوُعاة في طبقات اللغويين والنحاة*. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٥.

_____. *المُزهر في علوم اللغة وأنواعها*. تحقيق محمّد جاد المولى ومحمّد أبو الفضل إبراهيم وعليّ محمّد البجّاوي. المكتبة العصريّة، بيروت، ١٩٨٦.

_____. معجم *مقاليد العلوم*. تحقيق محمّد إبراهيم عبادة. مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤.

_____. *همع الهوامع في شرح جمع الجوامع*. تحقيق محمّد عبد السلام هارون وسالم عبد العال مكرم. دار البحوث العلميّة، الكويت، ١٩٧٥.

الفاسيّ، أبو عبد الله محمّد بن الطيّب. *فيض نشر الانشراح من طيّ روض الاقتراح*. تحقيق محمود يوسف فجّال. دار البحوث للدراسات الإسلاميّة وإحياء التراث: سلسلة الدراسات العربيّة، الإمارات العربيّة المتّحدة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢.

الفراهيدي، أبو عبد الرحمٰن الخليل بن أحمد. *كتاب العين*. تحقيق داود سلّوم وداود سلمان العنبكي وإنعام داود سلّوم. مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤.

الفيروز أبادي، أبو الطاهر محمّد بن يعقوب. *القاموس المحيط*. مؤسسة الرسالة، مكتب تحقيق التراث، بيروت، ١٩٨٦.

القُرطبيّ، أبو عبد الله محمّد بن أحمد شمس الدين. *الجامع لأحكام القرآن: تفسير القرطبيّ*. تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٤.

القِفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف. *إنباه الرواة على أنباه النحاة*. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦-١٩٨٢.

ياقوت الحمويّ، شهاب الدين أبو عبد الله. معجم *الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب*. تحقيق إحسان عبّاس. دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤-١٩٩٣.

ثانيًا: المراجع العربيّة

أبو زهرة، محمّد. *تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية*. دار الفكر العربيّ، القاهرة، ١٩٩٦.

الأفغاني، سعيد. *في أصول النحو*. الجامعة السوريّة، ١٩٥٧.

بروكلمان، كارل. *تاريخ الأدب العربيّ*. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣.

بعلبكي، رمزي. *الوحدة الداخليّة في كتاب سيبويه*. العربيّة هذه اللغة الشريفة، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميّة، ٢٠١٧، ١٢٢-١٤٢.

ترزي، فؤاد حنّا. *في أصول اللغة والنحو*. دار الكتب، بيروت، ١٩٦٩.

تروبو، جيرار. *نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه*. مجلة مجمع اللغة العربيّة الأردني، العدد ١، ص ص ١٢٥-١٣٨، ١٩٧٨.

التهانويّ، محمّد عليّ. *كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم*. دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٣٤.

جبري، شفيق. *تطوّر اللغة في العصر العباسيّ*. مجلة مجمع اللغة العربيّة، مجلّد ٤٤/ج ٤، ٦٨٧-٦٩٩.

الحديثي، خديجة. *الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه*. مطبوعات جامعة الكويت، الكويت، ١٩٧٤.

الحلواني، محمّد خير. *المفصّل في تاريخ النحو العربيّ*. مؤسّسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٩.

الحيدريّ، محمّد. معجم الأفعال المتداولة. المركز العالمي للدّراسات الإسلامية، ٢٠٠٢.

خير بك، عبد الوهّاب. *الحكمة في الشعر الجاهليّ*. دار الحارث، دمشق، ٢٠٠٣.

دركزللي، عبد الرحمٰن. *الظواهر اللغويّة الكبرى في العربيّة*. دار القلم العربي، حلب، ٢٠٠٦.

دمشقيّة، عفيف. *تجديد النحو العربيّ*. معهد الإنماء العربيّ، بيروت، ١٩٧٦.

_____. *المنطلقات التأسيسيّة والفنيّة إلى النحو العربي*. معهد الإنماء العربيّ، طرابلس (ليبيا)، الطبعة الأولى، ١٩٧٨.

الراجحيّ، عبده. *فقه اللغة في الكتب العربيّة*. دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٤.

الزبيدي، سعيد قاسم. *القياس في النحو العربي: نشأته وتطوّره*. دار الشروق، عمان، ١٩٩٧.

السامرّائي، فاضل. *ابن جنّيّ النحويّ*. دار النذيرللطباعة والنشر، بغداد، ١٩٦٩.

شيخ الأرض، تيسير. *الفلسفة ومعنى الحكمة*. إتّحاد كتاب العرب، دمشق، ١٩٧٨.

الشيخ عيد، إبراهيم. *ابن جنّي والأصول النحويّة*. مجلد جامعة الأقصى (سلسلة العلوم الإنسانيّة)، المجلد التاسع عشر، العدد ٢، ص ص ٢٧-٥١، يونيو ٢٠٠٥.

ضيف، شوقي. *تاريخ الأدب العربيّ: العصر العبّاسي الثاني*. دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧٥.

_____. *المدارس النحويّة*. دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٢.

طلمون، رافي. *"مقدّمة في النحو" المنسوب إلى خلف الأحمر دراسة وفهرس ومصطلحات*. مجلّة الكرمل، أبحاث في اللغة والأدب، العدد ١١، ١٩٩٠.

عاشور، محمّد. *أثر المعتزلة في الدرس النحويّ عند ابن جنّـيّ*. جامعة المنيا، ١٩٩٨.

عبد الموجود، عادل. *التوظيف الأصوليّ للنحو*. دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠١١.

علي، جواد. *المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام*. دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨.

عمر، أحمد مختار. معجم *اللغة العربيّة المعاصرة*. عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٨.

الفتليّ، حسين. *أصول التفكير النحوي عند ابن جنّـي في كتابه الخصائص*. مجلّة كليّة التربيّة الأساسيّة جامعة بابل، العدد ١٤، كانون الأوّل ٢٠١٣.

فروخ، عمر. *عبقريّة العرب في العلم والفلسفة*. المكتبة العصريّة، بيروت، ١٩٦٩.

الكردي، راجح عبد الحميد. *نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة*. دار الفرقان للنشر والتوزيع، الرياض، ٢٠٠٤.

المبارك، مازن. *النحو العربي العلّة النحويّة: نشأتها وتطوّرها*. المكتبة الحديثة، الطبعة الأولى، ١٩٦٥.

مجمع اللغة العربيّة. *المعجم الوسيط*. القاهرة، ٢٠٠٥.

الملخ، حسن. *نظريّة التعليل في النحو العربيّ بين القدماء والمحدثين*. دار الشروق، عمان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.

النجّار، نادية. *القرائن بين اللغويّين والأصوليّين*. دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٦.

النعيمي، حسام. *ابن جنّي: عالم العربيّة*. وزارة الثقافة والإعلام، دار الشؤون الثقافية، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٩٠.

ثالثًا: المراجع الأجنبيّة

Baalbaki, Ramzi. *Grammarians and Grammatical Theory in the Medieval Arabic Tradition*, Ashgate Variorum, 2004.

_____. *The Book in the Grammatical Tradition: Development in Content and Methods*, in George N. Atiyeh, *The Book in the Islamic World: The Written Word and Communication*

in the Middle East. New York: Library of Congress. 1995. 123-139.

_____. *The Early Islamic Grammatical Tradition*. Aldershot: Ashgate, 2007.

_____. *The Legacy of the Kitāb: Sībawayhi's Analytical Methods within the Context of the Arab Grammatical Theory*. Leiden: Brill, forthcoming.

_____. From Burden to Asset: Morphological Change in the Arabic Tradition. *Current Issues in the Analysis of Semitic Grammar and Lexicon I. Oslo-Göteborg Cooperation 3rd-5th June 2004*. Edited by Edzard, Lutz and Retsö. Wiesbaden: Harrassowitz Verlag 2005. 83-105.

Bohas, Georges, Jean-Patrick Guillaume and Djamel Eddin Kouloughli. *The Arabic Linguistic Tradition*. London: Routledge, 1990.

Carter, M.G. *Sibawayhi.* London: I.B. Tauris, 2004.

Méhiri, Abdelkader. *Les théories grammaticales d'Ibn Jinni,* Université de Tunis, Tunis, 1973.

_____. *Les Origines de la Grammaire Arabe.* Revue des études Islamiques 40. 69-97.

Owens, Jonathan. *The Foundation of Grammar: An Introduction to Medieval Arabic Grammatical Theory.* Amsterdam: John Benjamins, 1988.

Suleiman, Yasir. *The Arabic Grammatical Tradition: A Study in ta'līl.* Scotland: Edinburgh University Press, 1999.

Troupeau, Gérard. *Lexique-index du Kitāb de Sībawayhi.* Paris: Klincksieck, 1976.